المبحث الثاني

الدروس والعبر المستفادة من سرية يوم الرجيع

١ ـ سعي الأعداء الدائم للقضاء على المسلمين:

يقول م/ أبو راس: «الحق والباطل في صراع دائم ما دامت السماوات والأرض، وأهل الحق لا يمكن أن يجمعهم مع أهل الباطل جامع، كما أن أهل الباطل لا يمكن أن يدعوا أهل الحق يعيشون بأمن وسلام إِنْ هُمْ ـ أي أهل الباطل ـ استطاعوا أن ينغصوا على أهل الحق معيشتهم، والباطل لا يتعامل مع الإسلام والمسلمين من منطلق المنطق والاحترام المتبادل، وإعطاء الحريات للجميع، ولكنه كان وما يزال وسيبقى يتعامل مع الحق وأهله بميزان القوة والضعف.

فإن كان أهل الحق أقوياء خنس الباطل وترقب، أما إذا ما تسرب الضعف إلى أهل الحق فإن الباطل يكشر عن أسباب عداوته وبغضائه لينشب أسنانه وما يمتلكه من وسائل قاتلة في جسد الأمة الإسلامية، دون أن تردعه عهود ومواثيق وذمم، وقَّع عليها أيام كان الحق قويًّا.

وهذه الفعلة المنكرة تتكرر مع المسلمين على مر الزمن في حال قوتهم وضعفهم، فعلى الرغم مما أبداه المسلمون من تجلد وبأس في مطاردة فلول المشركين في أعقاب غزوة أحد، وعلى الرغم من مكوث المسلمين في «**حمراء الأسد**» أيامًا متعاقبة ينتظرون فيها قريشًا لمعاودة الحرب، على الرغم من هذا كله إلا إن اليهود في داخل المدينة ـ مع من لف لفهم من المنافقين والأعراب المحيطين بمدينة رسول الله ﷺ ـ لم يتوانوا عن إظهار شماتتهم بالذي حدث، فأعلنوا عداوتهم لهذه الدعوة المباركة بعد أن كانوا يحاولون سترها بزائف الكلام، في الحين الذي أخذ فيه أعراب البادية بالتحرك نحو المدينة المنورة ظنًّا منهم أنها أصبحت نهبًا لكل طامع، يبحث عن الثراء السريع.

أولًا: هؤلاء المتحركون لغزو المدينة بنو أسد، في الحين الذي حاول فيه (خالد بن سفيان الهذلي) أن يحشد الجموع لحرب المسلمين.

ولم يقعد رسول الله ﷺ يضيع الوقت وينتظر الأحداث ـ ذلك أن الأحداث لا تنتظر أحدًا.. وأن الهجوم ـ مهما تكن الأحوال ـ خير وسيلة للدفاع لإرغام الأعداء على التراجع إلى جحورهم التي انطلقوا منها.

لم يبدد الرسول ﷺ وقته، ولكن سرعان ما بعث أبا سلمة ﷺ على رأس مائة وخمسين رجلًا ليبغتهم في منازلهم قبل أن يقوموا بما خططوا له، واستطاع أبو سلمة ﷺ أن يشتت أعداءه، ليكسر شوكتهم، ولينزع من أنفسهم ما علق بها من مطامع في مدينة المصطفى ﷺ، وأرسل ﷺ عبد الله بن أُنيس ﷺ ليقتل خالد بن سفيان الهذلي قبل أن يتمكن من إتمام ما نشط له لكسر شوكة الإسلام والمسلمين.

ولكن الباطل لا يمل، وحِيَلَه لا تتوقف، وأساليبه لا تتجمد عند أسلوب واحد، فالهدف الكبير عندهم قتل المسلمين وبأي وسيلة كانت، إذ أنه لا حُرمة عندهم لدم المسلمين، الأمر الذي تفتق في ذهن أكابر مجرمي قبائل عضل والقارة، بإرسال وفد إلى رسول الله ﷺ يدَّعون أنهم وصلهم نبأ الإسلام، وأنهم يريدون من النبي ﷺ أن يرسل معهم رهطًا من الدعاة يعلمونهم الإسلام ويقرؤون عليهم القرآن، فأرسل ﷺ وفدًا من خيرة الصحابة يرأسهم «عاصم بن ثابت ﷺ»، فانطلق الجميع، وجرى ما رأيناه في أحدث السرية». [تأملات حركية في سيرة المصطفى ﷺ لأبي راس ٢١٦-٢١٧].

٢ ـ أهمية سرية الرجيع:

يقول الشيخ عرجون: «إن بعث الرجيع انطوى على أحداث ووقائع جعلته مندرجًا في إطار منهجنا في البحث؛ لما اشتمل عليه من معالم كانت أشبه ما تكون بالدروس التربوية العملية التي تلقاها المجتمع المسلم في غزوة (أحد).

ولما كان فيها من بطولات فدائية كشفت عنها الشدائد والمحن، وأقامت بفدائيتها منائر اليقين الإيماني، وجعلت كلمة الكفر في عهوده هي السفلى، فداست عليها بأقدامها ولم تعطها شيئًا من الثقة بها وبمن يبذلها مزلقة للغدر، والخيانة، وهي ترى الموت يحفها من جميع جوانبها.

ولما ظهر في أبطال هذا البعث من قوة الحب الإيماني لرسول الله ﷺ عند الذين كانت رقابهم تحت شفرات السيوف، وهم ينظرون إلى الموت يهرول إليهم ليتخطَّفهم، فلا يرضون أن يفديهم رسول الله ﷺ بشوكة يشاكها، وهو ﷺ في مكانه بين أصحابه آمنًا معززًا موقرًا، وينجون بأنفسهم من الموت». [محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٢٥].

٣ ـ مهمة السرية:

في التوفيق بين روايتي البخاري وابن إسحاق لمهمة السرية يقول الشيخ عرجون: «ذكر البخاري سرية (الرجيع) في حديث أبي هريرة ﷺ على أنها كانت عينًا لرسول الله ﷺ بعثها إلى مكة لتأتي بأخبار قريش، وهذا أمر معقول تقتضيه متابعته السياسية للوقوف على ما يجري في صفوف أعداء المجتمع المسلم من تدبير وحركة؛ لأن سرية (الرجيع) كانت قليلة عدد الرجال مما يناسب أن تكون عينًا لمعرفة الأخبار، ويُسْر التخفي للإحاطة بشيء من الأسرار، وكانت بُعَيد (أحد) التي جرى فيها على المجتمع المسلم ما جرى من شدائد الأحداث والمحن، وكانت آثارها وعواقبها لا تزال تقلق المجتمع المسلم المتحفز إلى مفاجآت العدو، وتجعل رسول الله ﷺ شديد الحرص على معرفة ما يدور في محافل قريش وتفكيرها وتدبيرها، ولا سيما بعد الذي وقع في (حمراء الأسد) من التآمر القرشي بزعامة أبي سفيان بن حرب، وعزمهم على الرجوع إلى المدينة ليفرغوا ممن بقي من أبطال كتائب الإسلام، وما كان من موقف الوفاء

والنبل الذي وقفه معبد الخزاعي مثبطًا ومخذلًا أولئك المتحمسين للرجوع إلى مهاجمة المجتمع المسلم في عقر داره في المدينة المنورة، إذ قال لقريش وهي تستعد للرجوع بأن محمدًا ﷺ وأصحابه قد جمعوا لهم جموعًا لا طاقة لهم بلقائهم، وهم متحرقون غيظًا عليهم، يريدون قتالهم وهم في الطريق إليهم، وكأنهم بمقدمة الخيل تحمل الأبطال إليهم قد أظلتهم، ففزعوا ورعبوا، وداخلهم الفشل، وعزموا على السير إلى مكة فرارًا أن ينزل بهم ما أنبأهم به معبد الخزاعي من مفاجأة القتال.

فكان من الحزم السياسي وحكمة التدبير، وبعث اليقظة الحازمة أن لا يترك رسول الله ﷺ أمر قريش وتدبيرها دون أن يعمل على التعرف عليه والإحاطة به، ليكون أصحابه على بصيرة من أمرهم.

أما ابن إسحاق فقد جعل سبب هذه السرية استجابة رسول الله ﷺ لنفر من عضل والقارة قَدِموا على رسول الله ﷺ وذكروا له أن فيهم إسلامًا وهم يريدون أن يبعث معهم نفرًا من أهل العلم في أصحابه؛ لتعليمهم شرائع الإسلام، فبعث معهم ﷺ ستة نفر من أصحابه ليقوموا بهذه المهمة التي هي إحدى دعائم الدعوة إلى الله تعالى.

وهذا ـ عند التأمل ـ ليس اختلافًا ولا تفاوتًا يوجب الموازنة بين سياقي الغزوة عند البخاري وابن إسحاق، لاحتمال التوافق بالتوفيق بين الروايتين، وذلك بحمل السبب الأول لبعث السرية على إرادة التعرف لأخبار قريش وتدبيرها؛ ليتخذ رسول الله ﷺ أهبته واستعداده لما عسى أن تكون قريش قد دبرته وائتمرت به من مكر سيء يكيدون به المجتمع المسلم.

ثم قُبيل أن تأخذ البعثة طريقها إلى مهمتها في التعرف على أخبار المشركين وهم في بلدهم يأتمرون حضر نفر من عضل والقارة ليطلبوا من رسول الله ﷺ بعث نفر من أصحابه يفقهونهم في الدين، فرأى رسول الله ﷺ أن فرصة إجابتهم إلى طلبتهم تتحقق بهذه السرية المرسلة إلى مكة عينًا لتعرف أخبار المشركين فيها.

ولا تنافي مطلقًا بين مهمتي البعثة: مهمة تعرف أخبار الأعداء من قريش في مكة، ومهمة التفقيه في الدين، وحينئذ فلا اختلاف ولا تفاوت في سياقي البخاري وابن إسحاق لقصة (الرجيع).

وقد ذكر الزرقاني في شرح المواهب نحو هذا، فقال: ويجمع ـ أي بين السياقين ـ بأنه لما أراد بعثهم عيونًا وافق مجيء النفر في طلب من يفقههم في الدين، فبعثهم في الأمرين».

[محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٣٩-٤١].

ويقول د/ الحميدي: «يمكن الجمع بين الروايتين باحتمال: أن النبي ﷺ قد بعث أفراد تلك السرية للمهمتين معًا، وأن إحدى المهمتين علنية، وهي المهمة الدعوية التي ذكرها عاصم بن عمر في رواية ابن إسحاق، والأخرى سِرِّيَّة وهي مهمة التجسس على الأعداء في البخاري عن أبي هريرة ﷺ، فذكر عاصم

عن أشياخه من الأنصار المهمة المعلنة، ووعى أبو هريرة ﷺ المهمة السرية عمن أخبره من الصحابة حيث لم يهاجر إلى المدينة إلا في العام السابع فحُدِّث بها، ولعله رأى هو أو مَنْ حدَّثه أنها المهمة الأساسية فاكتفى بذكرها، ويكون مَنْ أخبر عاصم بن عمر بن قتادة بالمهمة العلنية لم يعلم بالمهمة السرية والله أعلم».

[التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ٣٦].

٤ ـ قتل ابن نبيح كان سببًا في محنة الرجيع في رواية الواقدي:

يقول الشيخ عرجون: «أما المنحى الآخر في سبب سرية الرجيع ـ الذي أثارها وأشعل أوارها حتى انتهت بما انتهت إليه من الغدر الخؤون والخيانة الغادرة مما أدَّى إلى قتل جميع رجالها العشرة وقائدهم عاصم بن ثابت ـ فيرجع إلى ما ذكره الواقدي متصلًا بقتل خالد بن سفيان بن نبيح الهذلي ثم اللحياني الذي قتله عبد الله بن أنيس ﷺ لتجميعه الجموع لمهاجمة المجتمع المسلم وإشعال الحرب على رسول الله ﷺ.

فهذا المنحى يدل صراحة على أن بني لحيان مشوا إلى عضل والقارة وهما بطنان من هذيل فأغروهم على خيانة الله ورسوله والمسلمين من أجل قطيع من الإبل قدَّموه لهم ثمنًا لخيانتهم وغدرهم.

وقبلت عضل والقارة أن يقوم نفرهم الذين قَدِموا على رسول الله ﷺ فحدَّثوه الكذب والبهتان، وزعموا له ﷺ أن فيهم إسلامًا وهم منطوون على أحط ضروب الغدر، وأسفل دناءات الخيانة، وطلبوا من رسول الله ﷺ أن يبعث معهم نفرًا من أصحابه يعلمونهم الدين وشرائع الإسلام، وقد استأجرهم بنو لحيان ـ قوم ابن نبيح الخبيث الفاجر ـ بأبخس وأحط ما يستأجر به مرضى القلوب وضعاف النفوس للقيام بأحط خيانة تشمئز منها المروءة العربية فضلًا عن مكارم الدين وأخلاقه؛ لأن هؤلاء القوم تجردوا من كل إنسانية من أجل سقط من فتات متعفن تتلمظ إليه النفوس المريضة بالتعبد لرغائب الشهوات الوضيعة». [محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٤٨-٤٩].

ويقول د/ الغضبان: «ولابد من الإشارة إلى أن هذا الغدر مرفوض في البيئة العربية بين قبيلتين ليس بينهما حرب ولا ثارات، وليس بين عضل والقارة وبين المسلمين ثارات أو دماء أو حرب.

فهي خيانة لا تألفها البيئة العربية آنذاك، وكان غدر هؤلاء المرافقين أنهم: استصرخوا عليهم هذيلًا في ديارهم حسب المؤامرة المبيتة بين الفريقين؛ ليأخذوا ثأرهم بمقتل خالد بن سفيان».

[التربية القيادية للغضبان ٣/ ٢٥١].

ويقول أ/ حوى: «لقد ثأرت هذيل لمقتل صاحبها، فأعانت على أصحاب رسول الله ﷺ في حادثة الرجيع، وكل عملية عسكرية لها عقابيلها، والعبرة بالمحصلة النهائية لأي عملية على المستوى المرحلي أو المستقبلي، لقد كان إجهاض التحرك العسكري الذي كان يقوده خالد بن سفيان الهذلي أهم بكثير من أية عملية ثأرية». [الأساس في السنة لحوى ٢/ ٦١٤- ٦١٥].

٥ ـ أهمية الترتيب والتدبير عند القائد:

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ ﷺ: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ بَعَثَ بَعْثًا إِلَى بَنِي لِحْيَانَ مِنْ هُذَيْلٍ، فَقَالَ: «**لِيَنْبَعِثْ مِنْ كُلِّ رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا وَالأَجْرُ بَيْنَهُمَا**». [مسلم في الإمارة (١٨٩٦)، وأحمد (١١٣١٩، ١١٤٧٩، ١١٨٨٥)، والمصنف لابن أبي شيبة ٢٠/ ٤٢٦-٤٢٧ كتاب الغزوات (٣٨٠١٨)، والسنن الكبرى للبيهقي ٩/ ٤٠].

وفي روايةٍ لَهُ: «**لِيَخْرُجَ مِنْ كُلِّ رَجُلَيْنِ رَجُلٌ**»، ثُمَّ قَالَ لِلقَاعِدِ: «**أَيُّكُمْ خَلَفَ الخَارِجَ فِي أَهْلِهِ وَمَالِهِ بِخَيْرٍ كَانَ لَهُ مِثْلُ نِصْفِ أَجْرِ الخَارِجِ**». [أبو داود في الجهاد (٢٥١٠)، وقال الألباني: صحيح].

يقول أ/ حوى: «هذا مظهر من مظاهر الترتيب والتدبير في حياة الرسول ﷺ، وهو القدوة، وبمثل هذا أدار الأمور عن أقرب طريق، وههنا نجد صورتين، صورة التخيير في الجهاد عندما يكون في الأمر سعة، وصورة كفالة الخارج في أهله من شخص بعينه، ومن هنا نعرف أن من خرج مجاهدًا لا ينبغي أن يُضَيَّع أهله». [الأساس في السنة لحوى ٢/ ٦٢٢].

٦ ـ عدد رجال السرية:

يقول الشيخ عرجون: «ذكر البخاري ﷺ أن سرية (الرجيع) كانوا عشرة رجال، موافقًا لابن سعد على ذلك، وجرى ابن إسحاق على أنهم كانوا ستة نفر، وهذا ليس اختلافًا ولا تفاوتًا لاحتمال أن يكون رجال السرية الأصليين ستة نفر، والأربعة المكملون للعشرة كانوا أتباعًا لهم فلم يذكرهم ابن إسحاق، واكتفى البخاري بذكر عدد من كانوا في السرية إجمالًا.

وقد أشار إلى هذا الحافظ ابن حجر فقال بعد أن ذكر في رجال السرية معتب بن عبيد ومغيث بن عوف، كما ذكره موسى بن عقبة: فلعل الثلاثة الآخرين كانوا أتباعًا فلم يحصل الاعتناء بتسميتهم».

[محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٤١].

٧ ـ معرفة ما كانت عليه الفدائية الإسلامية:

يقول د/ الحميدي: «إن خروج هذه السرية بهذا العدد القليل إلى تلك المسافة البعيدة يُعتبر مغامرة جريئة وتضحية كبيرة.

وقد كانت مهمتهم التجسس على الأعداء، كما جاء في رواية البخاري، وذلك لما تنامَى إلى أسماع النبي ﷺ وأصحابه من أخبار بعض القبائل التي تتحدث بغزو المدينة، ومن ذلك ما سبق في خبر بني «أسد»، وخالد بن سفيان الهذلي، فكان لابد من المغامرة بعدد محدود من المسلمين ليوافوا رسول الله ﷺ ومستشاريه بأخبار الأعداء قبل أن يتجمعوا ويصعب القضاء عليهم». [التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ٣٥].

٨ ـ أمير السرية:

يقول الشيخ عرجون: «ذكر البخاري أن السرية كانت تحت إمرة عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح الأنصاري، أما ابن إسحاق فجعل أمير السرية مرثد بن أبي مرثد الغنوي ﷺ.

وهذا الاختلاف في أمير السرية يحتمل أن أحد الأميرين المسمَّيَين كان أمير حرب، والآخر كان أمير تفقيه في الدين على حسب معرفتهما وتربيتهما في هذه المعرفة؛ ولذلك لما أبى عاصم ﷺ أن ينزل على عهد الكفار وذمتهم قاتلتهم حتى فني نبله، فقتلوه، وقتلوا معه سبعة من أصحابه.

وفي رواية أن عاصمًا ﷺ نثر كنانته، وفيها سبعة أسهم، فقتل بكل سهم رجلًا من عظماء المشركين، ثم طاعنهم حتى انكسر رمحه، ثم سل سيفه، وقال: **اللهم إني حميت دينك صدر النهار فاحمِ لحمي آخره،** وقُتل عاصم ﷺ في السبعة من رجال السرية، وفي هذا دلالة على أن عاصمًا ﷺ كان أمير حرب السرية إذا حوربت، وأن مرثدًا ﷺ كان أمير التفقيه في الدين وتعليم الجاهلين».

[محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٤١-٤٢].

٩ ـ المشركون يطلبون ثأرهم:

يقول أ/ فتح الباب: «سكتت بنو لحيان على مصرع زعيمها خالد بن سفيان حينًا ريثما تتهيأ لها فرصة الأخذ بالثأر، وظلت تجتاحها الرغبة في الانتقام، وقد واتتها تلك الفرصة حين قدم على رسول الله ﷺ رجال من بني الهون بن مدركة، وكانوا يجاورون بني لحيان، فذكروا له أنهم قد أسلموا ورغبوا أن يبعث معهم نفرًا من المسلمين يعلمونهم القرآن ويفقهونهم في الدين، فبعث النبي ﷺ معهم سبعة رجال هم: مرثد بن أبي مرثد الغنوي، وخالد بن البكير الليثي، وعاصم بن ثابت الأقلح، وخبيب بن عدي وهما من بني عمرو بن عوف، وزيد بن الدِّثِنَّةِ، وعبد الله بن طارق حليف بني ظفر، ومعتب بن عبيد أخو عبد الله لأمه، وأمر عليهم مرثد بن بي مرثد.

وهكذا سارت هذه الصفوة المؤمنة مغتربة عن ديارها متكبدة عناء الرحلة استجابة لما أمر به رسول الله ﷺ، تبغي هداية الناس وتعليمهم شرائع الإسلام، لا تطلب منهم جزاء ولا شكورًا، ولكن حسبها رضا الله ورضا الرسول ﷺ والمؤمنين، وكفاها فخرًا أنها ندبت للوفاء برسالة دينية سامية».

[القيم الخلقية والإنسانية في الغزوات لفتح الباب ٩٧].

١٠ ـ أهمية الحس الأمني لدى الجنود:

قال الحافظ في الفتح: «قَوْلُهُ: «فَاقْتَصُّوا آثَارَهُمْ حَتَّى أَتَوْا مَنْزِلًا نَزَلُوهُ فَوَجَدُوا فِيهِ نَوَى تَمْرٍ»، فِي رِوَايَةِ أَبِي مَعْشَرٍ فِي مَغَازِيهِ: «فَنَزَلُوا بِالرَّجِيعِ سَحَرًا، فَأَكَلُوا تَمْرَ عَجْوَةٍ فَسَقَطَتْ نَوَاةٌ بِالأَرْضِ، وَكَانُوا يَسِيرُونَ اللَّيْلَ وَيَكْمُنُونَ النَّهَارَ، فَجَاءَتْ امْرَأَةٌ مِنْ هُذَيْلٍ تَرْعَى غَنَمًا فَرَأَتِ النَّوَاةَ، فَأَنْكَرَتْ صِغَرَهَا، وَقَالَتْ: هَذَا تَمْرٌ يَثْرِبَ، فَصَاحَتْ فِي قَوْمِهَا أُتِيتُمْ، فَجَاؤُوا فِي طَلَبِهِمْ فَوَجَدُوهُمْ قَدْ كَمَنُوا فِي الْجَبَلِ».

[فتح الباري ٧/ ٤٤٠].

يقول أ/ حوى: «رواية أبي معشر تدل على أنهم كانوا يحتاطون ألا يتركوا أثرًا بما في ذلك نوى تمرهم الذي يأكلونه، وهذا يفيد أنهم كانوا في أعلى درجات الحس الأمني، وعلى كل الأحوال فإن من أدب

المسلم أن يرهف حسه الأمني دائمًا حتى تكون تصرفاته على غاية من الحكمة، فلا يكون إهماله سببًا في تدمير نفسه أو تدمير جماعة من المسلمين، فضلًا عن أن يكون إهماله سببًا في تدمير جماعة المسلمين».
[الأساس في السنة لحوى ٢/ ٦٢٠].

١١ ـ بيان ما عليه الأعداء من الغدر والخيانة ومواجهتهم:

يقول أ/ فتح الباب: «لما بلغ القوم رجال بني الهون مع أصحاب رسول الله ﷺ ماء لقبيلة هذيل قبيلة بني لحيان بالحجاز بناحية تدعى الرجيع غدروا بهم، إذ استصرخوا عليهم رجال هذيل الذين فاجأوهم بسيوفهم من كل جانب، فأحيط بأصحاب النبي ﷺ حين أُخذوا على حين غرة، فاستلوا سيوفهم واعتزموا أن يقاتلوا حتى آخر رمق، وقد أيقنوا أنهم لا محالة هالكون في موقعة غير متكافئة في العدد والعدة والمكان، موقعة لا تُجدي فيها شجاعة سبعة من الرجال وثب عليهم فجأة أضعاف عددهم من الأعداء في عقر دارهم، غير مراعين حرمة الضيف ولا شرف العهد، سبعة من الرجال المسالمين نزلوا في ساحتهم يبتغون لهم الخير والصلاح والخروج من ظلمات الجاهلية إلى أنوار الحق والرشاد، فقوبلوا بخسة لا تصدر إلا عن نفوس تنضح بالعفونة وقلوب يأكلها الحقد والضغينة». [القيم الخلقية لفتح الباب ٩٨].

ويقول د/ الشرباصي: «إن أخس ما في أعدائنا من أهل الشرك والكفر والبغي هو الغدر والخيانة، مع المكر السيء الوضيع، والاحتيال الحقير المهين، الذي لا يقيم أي وزن للوعد أو العهد أو الشرف أو مكارم الأخلاق.

وهذه الرذائل المُسِفَّة المؤسفة كانت في أعدائنا بالأمس، وهي في أعدائنا اليوم، وستصاحبهم في الغد: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ ﴾[البقرة].

ولقد لقي رسول الله ﷺ، ومعه صحابته وأتباعه ما لقوا من غدر المشركين ولؤم اليهود، ولكن الله ﷻ زان هؤلاء الأتباع الأخيار بفضيلتي الوفاء والفداء، فجعلهم يصرون على الحق، ويثبتون على كلمة الصدق، مستجيبين لقول ربهم عز من قائل في ختام سورة آل عمران: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾[آل عمران]». [موسوعة الفداء للشرباصي ٢/ ٢٥٤].

ويقول أيضًا: «إذا كان الإسلام العظيم قد علمنا أن الحرب خدعة، وأنها تقوم على المحاورة والمخاتلة، فإنه في الوقت نفسه قد حذرنا مكر أعدائنا وغدرهم، وحذَّرنا الاغترار بما قد يعطونه من عهود ووعود، أو يبدونه من تظاهر بالضعف أو المسألة، فإن قلوبهم منطوية على الغل والحقد؛ ولذلك قال القرآن الكريم: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا ﴿٧١﴾ ﴾[النساء]، وقال: ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً ﴾[النساء: ١٠٢].

وإذا كنا قد جنينا المر في حاضرنا من انخداعنا بمكر أعدائنا، فإن أجدادنا العظام قد تعرضوا لمواقف خيانة الأعداء ومكرهم، وابتلاهم ربهم في ذلك المجال ابتلاء ممحصًا مؤدبًا، كما شهدنا في غزوة أحد وغزوة حنين.

ولكن أسلافنا ـ رضوان الله عليهم ـ قابلوا تلك المواقف بالصبر والاحتمال، ثم بالتدبر والاعتبار، ثم بالحيطة والحذر بعد ذلك، فكانت التجارب المريرة تأديبًا لهم وتهذيبًا، وتعليمًا وتقويمًا، ولعل الأخلاف يتابعون الأسلاف في ذلك، فلا يقبلون لأنفسهم أبدًا أن يلدغوا من جحر واحد مرتين، فقد قال سيد الأنام ﷺ: «**لا يُلدَغُ المُؤمِنُ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ**».

[رواه البخاري ومسلم وأبو داود وابن ماجه وأحمد عن أبي هريرة ﷺ ـ صحيح الجامع الصغير رقم ٧٧٧٩].

وهذا نموذج من نماذج السيرة العطرة يرينا كيف وقع بعض الصحابة في شَرَك الخيانة والغدر من بعض المشركين، ولكنهم كانوا رجالًا أبطالًا، حتى في أشد المواقف عنتًا وضيقًا، وقدموا من التضحية والفداء ما يغطي على تبعة الانخداع، وما يعد نبراسًا ساطعًا أمام المناضلين».

[موسوعة الفداء في الإسلام للشرباصي ١/ ٥٨٤].

١٢ ـ رفض الاستسلام:

يقول د/ الشرباصي: «ما كان للهوان والذل أن يجتمعا مع الإيمان أبدًا، وقد فصَل ربنا الأعلى في هذه القضية منذ القدم، فقال في محكم تنزيله: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران].

وهؤلاء هم أسلافنا الذين رباهم إمامنا وقائدنا رسول الله ﷺ، قد علمونا أن المؤمن المجاهد يرحب بالمنية ولا يقبل الدنية، ويصافح أسنة الرماح والسيوف والسهام، ولا يقبل موالاة أعدائه من الكفرة اللئام». [موسوعة الفداء في الإسلام للشرباصي ١/ ٣٦٤].

ويقول أ/ فتح الباب: «لما وجد الهذليون أن المسلمين يرفضون الاستسلام وقد شرعوا أسلحتهم للدفاع عن أنفسهم حتى الموت طلبوا منهم أن يضعوا سيوفهم وأعطوهم كلمة الأمان، وأخبروهم أنهم لا يرغبون في قتلهم، وإنما يريدون أن يساوموا عليهم قريشًا، وكان قولهم في ذلك: «**إنا والله ما نريد قتالكم، إنما نريد أن نصيب بكم ثمنًا من أهل مكة، ولكم العهد والميثاق ألا نقتلكم**»، بمعنى أنهم يزعمون بيعهم إلى قريش.

غير أن رجال رسول الله ﷺ ـ من حُفاظ القرآن ومعلمي شرائعه ـ رفضوا هذا العرض، وإن كانوا يعلمون أن هذا الرفض سيكلفهم أعناقهم.

ففي مثل هذا الموقف ترخص الحياة وتصغر كل مباهج الدنيا، فلا مساومة على العزة، ولا بديل للكرامة، ولقد عرفوا نعمة الإسلام وذاقوا حلاوة الإيمان والحرية، وأدركوا أن الاستشهاد في سبيل الدفاع عن مبادئ الحق بغية المؤمن، وأن مقتلهم جميعًا لأهون من تسليمهم أسرى أذلاء إلى أعدائهم في مكة، فقال أربعة منهم هم: عاصم ومرثد وخالد ومعتب: **والله لا نقبل من مشرك عهدًا ولا عقدًا أبدًا،** وقاتلوا حتى قُتلوا وصعدت أرواحهم النورانية إلى السماء تعانق أرواح إخوان لهم سبقوا إلى ساحة الخلود مفتدين بدمائهم الذكية رسالة النور والخير والعدالة، فاتحين للبشرية من بعدهم سبيل المثل العليا والنضال دفاعًا عن قدسيتها، مقدمين أروع المثل لتضحية العلماء المؤمنين بأرواحهم في سبيل نشر علمهم». [القيم الخلقية والإنسانية في الغزوات لفتح الباب ٩٨-٩٩].

ويقول د/ الحميدي: «وهذا موقف جليل لعاصم بن ثابت ﷺ وجماعته ﷺ حيث أبوْا أن يستسلموا وأن ينزلوا على ذمة الكفار، وتصدوا لقتال مائة من الرماة، وقُتل بنبال العدو سبعة من العشرة فيهم أميرهم عاصم بن ثابت ﷺ، وبقي ثلاثة هم خبيب بن عدي، وزيد بن الدِّثِنَّةِ، وعبد الله بن طارق ﷺ، فاختاروا الاستسلام بعد قتل أصحابهم، ثم حاول المقاومة بعد ذلك عبد الله بن طارق ﷺ فقتلوه، وبقي خبيب وزيد ﷺ، وكان بقاؤهما خيرًا للمسلمين حيث سطَّرا في الأيام الأخيرة من حياتهما مواقف عالية في الصبر على الأذى واحتساب الأجر عند الله ـ تعالى ـ وإظهار عزة الإسلام».

[التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ٣٦].

١٣ ـ وقوع الكرامات للصالحين:

يقول أ/ فتح الباب: «وكان الشهيد عاصم بن ثابت ﷺ قد قَتل في معركة أحد أخوين مشركين من بني عبد الدار فنذرت أمهما سلافة بنت سعد بن شهيد إن أمكنها الله من رأس عاصم لتشربن الخمر في جمجمته، ولئن كانت هند قد شفت حقدها من سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ﷺ في تلك المعركة بعد مصرعه برمح من وحشي، وكان من عبيد الأحباش في قريش إذ لاكت كبد البطل الخالد انتقامًا لمقتل أبيها وأخيها بسيفه في بدر، فإن سلافة لم تشف غليلها من عاصم، وذلك أن بني هذيل أرادوا أن يأخذوا رأسه ليبيعوها لها فحمله سيل عرم فلم يصلوا إلى جثته ولا عرفوا مسقط رأسه».

[القيم الخلقية والإنسانية في الغزوات لفتح الباب ٩٩-١٠٠].

ويقول ابن سيد الناس في كتابه «المقامات العلية في الكرامات الجلية»: «أعطى الله عهدًا أن لا يمس مشركًا».

وَعِنَايَةُ الرَّحْمَنِ تَعْصِمُ عَاصَمًا عن أن يُنَال براحه أو أصْبع

بالسيل بعد الدَّبْر مـن أعدائـه في مصـرعٍ أكـرمْ بـه مـن مَصْرَع

[المقامات العلية في الكرامات الجلية، لابن سيد الناس ص ٧٢ نقلًا عن فرسان النهار للعفاني ٣/ ٣١٨].

ويقول د/ الحميدي: «في أشعار عاصم بن ثابت ﷺ، التي ذكرها ابن إسحاق في روايته تظهر عزة الإسلام والقوة في تحدي أهل الباطل.

وما جرى له من حماية الدبابير ومنعها المشركين من الدنو من جثته، ثم مجيء السيل وحمل جسده ودفنه عبرة عظيمة، حيث كان هذا الصحابي نذر أن لا يمس جسده مشرك تنجُّسًا، وجاء في رواية الواقدي: أنه بعد أن قاتل القوم قال: **اللهم حميت دينك أول النهار فاحم لي لحمي آخره.**

فقد أكرم الله ﷻ هذا الولي الصالح فاستجاب دعاءه فلم يعبث المشركون بجسده، ولم تتمكن سلافة بنت سعد شُهيد من شفاء غيظها منه بشرب الخمر في قحف رأسه.

ولقد كانت هذه الكرامة آية أظهرها الله ـ تعالى ـ لأولئك الأعراب، حيث عجزوا عن الوصول إلى جسد عاصم ﷺ مرتين، ولئن قالوا: بأن الدبابير جاءت صُدفة، فكيف يقولون في السيل الذي جاء وما في السماء قطعة سحاب؟! وكيف يجتمع الأمران على سبيل الصدفة؟!

لقد كان فيما جرى لهم من عاصم ﷺ عبرة، لو اعتبروا بها لقادتهم إلى الإسلام، ولكفَّروا عن ذنبهم الكبير بإطلاق الأسرى الثلاثة واتخاذهم أئمة هدى يتعلمون الإسلام منهم، ولكنهم أصحاب هوى، والدين الذي يخضعون له هو مصالحهم الدنيوية، فقد قاموا بذلك العمل الشنيع من أجل أن يستأسر لهم أفراد السرية ثم يبيعونهم من قريش، ولقد حرصوا على أخذ رأس عاصم ﷺ لضخامة الجُعل الذي جعلته سلافة لمن يأتي لها برأسه، كما جاء في رواية الواقدي أنها جعلت لمن جاء برأس عاصم ﷺ مائة ناقة، وكان عاصم ﷺ قتل ابنيها الحارث ومسافعًا كما جاء في رواية الواقدي وكما سبق في غزوة أحد.

وهكذا تضيع الفضيلة وتُفقد الكرامة حينما تسيطر النظرة المادية على تفكير الإنسان، وإذا خلا قلبه من الإيمان بالله ـ تعالى ـ الذي يسمو بفكره نحو الحياة الآخرة فإن تفكيره يكون مقصورًا على الحياة الدنيا، من أجلها يحب ويبغض، ومن أجلها يوالي ويعادي، ويقسو قلبه ويتجبر ويتحجر حينما يغلب غيره ويكون في موطن القوة، ويضعف ويستخذي حينما يُغْلب ويكون تحت رحمة غيره».

[التاريخ الإسلامي للحميدي٦/ ٣٧-٣٨].

١٤ـ بين المعجزة والكرامة:

يقول د/ البوطي: «دلَّ ما ذكرناه من أمر خبيب ﷺ أيام كان أسيرًا في مكة أن كل ما أمكن أن يكون معجزة لنبي جاز أن يكون كرامة لولي، مع فارق أساسي لا بد منه، وهو أن معجزة النبي تكون مقرونة بالتحدي ودعوة النبي، أما كرامة الأولياء والصالحين فتأتي عفوًا دون أن تقترن بأي نوع من التحدي.

وهذا ما جرى عليه جمهور أهل السنة والجماعة، ولا أدل عليه من هذا الذي أكرم الله به خبيبًا ﷺ قبل القتل، وهو ثابت كما رأيت في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري وغيره». [فقه السيرة للبوطي ٢٠١].

ويقول د/ فيض الله: «ولا شك أن هذا ـ كما قالت بنت الحارث ـ إكرام من الله لعبده الذي أُسر في أداء رسالته وإحسان منه، وتبشير له بمنزلته عنده، ومقامه المهيَّأ له في الدرجات الزُّلفَى يوم القيامة، إنه لإكرام عظيم، أن يأتيه رزقه عنبًا، ولا عنب في مكة، والأسير موثوق بقيود من حديد، مثَقَّلٌ بالأغلال.

ومن الحكمة واللطف أن يكرم الله عبده المجاهد في سبيله، بعد أن أُسر، وهو يرتقب الموت صابرًا محتسبًا؛ لأن في هذا الإكرام تثبيتًا لفؤاده، وتخفيفًا لأزمته وشدته، ودفعًا لدواعي الفتنة أن تتسرب إليه، فيحبط عمله، ويكون من الخاسرين.

وكرامات الأولياء ثابتة؛ وأهل التوحيد ينُصُّون على أن كل ما كان معجزة لنبي جاز أن يكون مثله كرامة لولي، سوى القرآن.

ولا فارق بين المعجزة وبين الكرامة إلا في التحدي ـ كما تقرر عندهم ـ.

وأهل الأصول يعتبرون كرامات الأولياء، من ضروب الرُّخص؛ لأن الله تعالى ربط الأسباب بالمسببات، وهذا من باب العزيمة؛ وتجيء الخوارق بعد ذلك أحوالًا واستثناءات، تجري على يد الولي، لا لِحَظٍّ في نفسه، بل لمعنى شرعي، وتجري من نفسها ولا يُجْريها من قِبَل نفسه.

وقد عقد الإمام الشاطبي ﷺ في آخر الجزء الأول من الموافقات فصلًا خاصًّا ممتعًا شيقًا لابتناء الكرامات على الرخص، وقرر أن من شرط الرخص ألا يقصدها ولا يتسبب فيها لينال تخفيفها، والأمر كذلك في الكرامات؛ لأن مخالفة هذا الشرط مخالفة لقصد الشرع.

وسرد ألوانًا من الكرامات التي حصلت لبعض الأولياء، وعقَّب على بعضها بمحاورة جرت بين أبي تراب النخشي، وبين أبي العباس الشرفي، إذ قال الأول للآخر: ما يقول أصحابك في هذه الأمور التي يُكرم الله بها عباده؟ فقال الآخر: ما رأيت أحدًا إلا وهو يؤمن بها، فقال أبو تراب: من لا يؤمن بها فقد كفر؛ إنما سألتك من طريق الأحوال، فقال الآخر: ما أعرف لهم قولًا فيه، فقال الأول وهو أبو تراب: بل قد زعم أصحابك أنها خدع من الحق، وليس الأمر كذلك، إنما الخدع في حال السكون إليها، فأما من لم يقترح ذلك ولم يساكنها، فتلك مرتبة الرَّبَّانيين.

وختم الإمام الشاطبي الحديث في هذا بقوله: «وهذا كله يدلك على ما تقدم، من كونها من حكم الرخصة، لا من حُكم العزيمة، فليُتَفَطَّن لهذا المعنى فيها، فإنه أصل ينبني عليه فيها مسائل: منها: أنها من جملة الأحكام المعارضة للقوم، والأحوال من حيث هي أحوال لا تُطْلب بالقصد، ولا تعد من المقامات،

ولا هي معدودة في النهايات، ولا هي دليل على أن صاحبها بالغ مبلغ التربية والهداية، والانتصاب للإفادة، كما أن الغنائم في الجهاد، لا تعد من مقاصد الجهاد الأصلية، ولا هي دليل على بلوغ النهاية».

وقصة خبيب ﷺ هذه التي علقنا عليها هذا التعليق، خير ما يصور نظرة أهل العلم ـ والإمام الشاطبي في المقدمة ـ إلى الكرامة.

وقد ثبتت كرامات الأولياء في صحاح الأحاديث، منها قصة الثلاثة الذين آواهم المطر إلى الغار، فاحتموا فيه، فسقطت الصخرة فسدت عليهم باب الغار، فدعوا الله بصالح أعمالهم، حتى تزحزحت، وانفتح لهم الباب فخرجوا.

ومنها قصة جريج الراهب، والغلام الرضيع الممهد الذي اتُّهم به أنه أبوه، فسأله جريج: من أبوك؟ فقال: أبي الراعي.

في الحديث الصحيح الطريف الذي ورد فيه أنه لم يتكلم في المهد إلا عيسى عليه السلام، وشاهد يوسف عليه السلام، وصاحب جريج، وابن ماشطة فرعون. [رواه الحاكم].

والذي حدث لخبيب ﷺ ومن قبله لجريج وأصحاب الغار، كان من قبيل الكرامات، وما كان خبيب وجريج وأصحاب الغار إلا من الأولياء المتقين، الجديرين بإكرام الله، وهم في أحلك المحن، وأحوج ما يكونون إلى تثبيت اليقين، وبث البشرى من رب العالمين، قال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾[يونس].

وبعد ورود النصوص الشرعية الثابتة، في الصحيحين وغيرهما، لا يُتصور من المؤمن السوي، أن يحاول أو يماري في ثبوت الكرامات؛ فهذا تأويل مَنْ كَفَّر منكرها». [**صور وعبر لفيض الله ١٥٥-١٥٨**].

وأخيرًا يقول ابن حجر: «قَوْلُهُ: (وَمَا كَانَ إِلَّا رِزْقٌ رَزَقَهُ اللهُ) فِي رِوَايَةِ اِبْنِ سَعْدٍ «**رَزَقَهُ اللهُ خُبَيْبًا**»، وَفِي رِوَايَةِ شُعَيْبٍ وَثَابِتٍ «تَقُولُ إِنَّهُ لَرِزْقٌ مِنْ الله رَزَقَهُ خُبَيْبًا».

قَالَ اِبْنُ بَطَّالٍ: هَذَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ اللهُ جَعَلَهُ آيَةً عَلَى الكُفَّارِ وَبُرْهَانًا لِنَبِيِّهِ لِتَصْحِيحِ رِسَالَتِهِ.

قَالَ: فَأَمَّا مَنْ يَدَّعِي وُقُوعَ ذَلِكَ لَهُ اليَوْمَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ المُسْلِمِينَ فَلَا وَجْهَ لَهُ، إِذْ المُسْلِمُونَ قَدْ دَخَلُوا فِي الدِّينِ وَأَيْقَنُوا بِالنُّبُوَّةِ، فَأَيُّ مَعْنًى لِإِظْهَارِ الآيَةِ عِنْدَهُمْ؟ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي تَجْوِيزِ ذَلِكَ إِلَّا أَنْ يَقُولَ جَاهِلٌ إِذَا جَازَ ظُهُورُ هَذِهِ الآيَاتِ عَلَى يَدِ غَيْرِ نَبِيٍّ فَكَيْفَ نُصَدِّقُهَا مِنْ نَبِيٍّ وَالفَرْضُ أَنَّ غَيْرَهُ يَأْتِي بِهَا لَكَانَ فِي إِنْكَارِ ذَلِكَ قَطْعًا لِلذَّرِيعَةِ،... إِلَى أَنْ قَالَ: إِلَّا أَنَّ وُقُوعَ ذَلِكَ مِمَّا لَا يَخْرِقُ عَادَةً وَلَا يَقْلِبُ عَيْنًا،

مِثْلَ أَنْ يُكَرِّمَ اللهُ عَبْدًا بِإِجَابَةِ دَعْوَةٍ فِي الحِينِ، وَنَحْو ذَلِكَ مِمَّا يَظْهَرُ فِيهِ فَضْلُ الفَاضِلِ وَكَرَامَةُ الوَلِيِّ، وَمِنْ ذَلِكَ حِمَايَةُ الله تَعَالَى عَاصِمًا لِئَلَّا يَنْتَهِكَ عَدُوُّهُ حُرْمَتَهُ. اِنْتَهَى.

وَالحَاصِلُ أَنَّ اِبْنَ بَطَّالٍ تَوَسَّطَ بَيْنَ مَنْ يُثْبِتُ الكَرَامَةَ وَمَنْ يَنْفِيهَا، فَجَعَلَ الَّذِي يُثْبِتُ مَا قَدْ تَجْرِي بِهِ العَادَةُ لِآحَادِ النَّاسِ أَحْيَانًا، وَالْمُمْتَنِعُ مَا يَقْلِبُ الأَعْيَانَ مَثَلًا، وَالمَشْهُورُ عَنْ أَهْلِ السُّنَّةِ إِثْبَاتُ الكَرَامَاتِ مُطْلَقًا، لَكِنْ اِسْتَثْنَى بَعْضُ الْمُحَقِّقِينَ مِنْهُمْ ـ كَأَبِي القَاسِمِ القُشَيْرِيِّ ـ مَا وَقَعَ بِهِ التَّحَدِّي لِبَعْضِ الأَنْبِيَاءِ فَقَالَ: وَلَا يَصِلُونَ إِلَى مِثْلِ إِيجَادِ وَلَدٍ مِنْ غَيْرِ أَبٍ وَنَحْو ذَلِكَ.

وَهَذَا أَعْدَلُ المَذَاهِبِ فِي ذَلِكَ، فَإِنَّ إِجَابَةَ الدَّعْوَةِ فِي الحَالِ وَتَكْثِيرَ الطَّعَامِ وَالمَاءِ وَالْمُكَاشَفَةَ بِمَا يَغِيبُ عَنْ العَيْنِ وَالإِخْبَارَ بِمَا سَيَأْتِي وَنَحْو ذَلِكَ قَدْ كَثُرَ جِدًّا حَتَّى صَارَ وُقُوعُ ذَلِكَ مِمَّنْ يُنْسَبُ إِلَى الصَّلَاحِ كَالعَادَةِ، فَانْحَصَرَ الخَارِقُ الآنَ فِيمَا قَالَهُ القُشَيْرِيُّ، وَتَعَيَّنَ تَقْيِيدُ قَوْلِ مَنْ أَطْلَقَ أَنَّ كُلَّ مُعْجِزَةٍ وُجِدَتْ لِنَبِيٍّ يَجُوزُ أَنْ تَقَعَ كَرَامَةً لِوَلِيٍّ، وَوَرَاءَ ذَلِكَ كُلِّهِ أَنَّ الَّذِي اِسْتَقَرَّ عِنْدَ العَامَّةِ أَنَّ خَرْقَ العَادَةِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَنْ وَقَعَ لَهُ ذَلِكَ مِنْ أَوْلِيَاءِ الله تَعَالَى، وَهُوَ غَلَطٌ مِمَّنْ يَقُولُهُ، فَإِنَّ الخَارِقَ قَدْ يَظْهَرُ عَلَى يَدِ الْمُبْطِلِ مِنْ سَاحِرٍ وَكَاهِنٍ وَرَاهِبٍ، فَيَحْتَاجُ مَنْ يَسْتَدِلُّ بِذَلِكَ عَلَى وِلَايَةِ أَوْلِيَاءِ الله تَعَالَى إِلَى فَارِقٍ، وَأَوْلَى مَا ذَكَرُوهُ أَنْ يُخْتَبَرَ حَالُ مَنْ وَقَعَ لَهُ ذَلِكَ، فَإِنْ كَانَ مُتَمَسِّكًا بِالأَوَامِرِ الشَّرْعِيَّةِ وَالنَّوَاهِي كَانَ ذَلِكَ عَلَامَةَ وِلَايَتِهِ، وَمَنْ لَا فَلَا، وَبِالله التَّوْفِيقُ».
[فتح الباري ٧/ ٤٤٣].

١٥ ـ الإسلام والتغيير العظيم في حياة الأفراد:

يقول د/ الشرباصي: «ما أعجب ما صنع الإسلام العظيم بالأوائل من المسلمين.

لكأنما قد خلقهم ربهم خلقًا جديدًا، بعد أن طهَّر حواسهم، وزكَّى نفوسهم، وقوَّم عقولهم، وعدَّل ميولهم، وأقامهم على الصراط المستقيم.

كانوا صرعى آثام ورذائل، فحلَّاهم بالمكارم والفضائل، وكانوا يطلبون اللذة عن طريق الجنس والخمر، فسما بهم إلى متعة الإيمان وروعة اليقين، وكانوا يتقاتلون على أتفه الأسباب، فأبدلهم بذلك شرف الجهاد في سبيل رب الأرباب، وبذلك صاروا خير أمة أخرجت للناس ـ كما قال القرآن المجيد ـ يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويؤمنون بالله، ولا يخضعون لأحد سواه.

وبذلك علَّموا أبناء الحياة كيف يترفعون عن سفاسف الأمور وحقائرها، وكيف يهيمون بالمعالي والمحامد، تحت ظلال القرآن الحكيم الذي قال فيه رب العزة: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ ٥٣﴾ [الشورى].

وهذا واحد من مدرسة محمد ﷺ مرثد بن أبي مرثد الغنوي ﷺ، كان في جاهليته شابًّا منطلقًا مع هواه، يخادن المرأة، ويعرف طريق المتعة الحرام، فلما أشرق بنور الإيمان قلبه اعتدل واستقام، فكان مثالًا طيبًا لشباب الإسلام الذين قال القرآن الكريم في إخوة لهم من قبل: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾﴾[الكهف]». [موسوعة الفداء في الإسلام للشرباصي ٢/ ٢٧٠-٢٧١].

ويقول ل/ خطاب: «وقد صدق مرثد ﷺ ما عاهد الله عليه، فمضى شهيدًا في معركة غير متكافئة، تكاثر فيها عليه وعلى رجاله المشركون المتفوقون على أفراد سريته عَدَدًا وعُدَدًا، فقاتل حتى استشهد مُقبلًا غير مُدبر؛ لأنه يدافع عن عقيدته، فلا يبالي أن يُقتل أو يَقتل، ولكن يبالي أن يُلحق بعقيدته العار، فما قصر في إقدامه مدافعًا عن الإسلام والمسلمين، ففاز بالشهادة وربحت تجارته.

استشهد مرثد ﷺ في ريعان الشباب، ولا نستطيع أن نتبين من سمات قيادته إلا أنه كان قائدًا من قادة العقيدة، داعيًا في قيادته، وقائدًا في دعوته، قوي البدن، يتحمل المشاق، ويصبر على المصاعب، يتحلى بالضبط المتين، والطاعة المطلقة، شجاعًا مقدامًا، لا يخشى الموت، ويُقَدِّم حياته فداءً لعقيدته».

[قادة النبي ﷺ لخطاب ٢٣٨، ٢٤٠].

١٦- كرامة لِمَرْثَدِ بن أَبِي مَرْثَدٍ الغَنَوِيِّ ﷺ زميل النبي ﷺ في البعير يوم بدر:

قال الشيخ الصوياني: «رجل شديد البأس، قويُّ البنية، جسور لا يهاب الموت، يعشق الشهادة، كان ﷺ يبعثه إلى أعماق قريش، يتغلغل فيها، لا ليقتل، بل لينقذ، ليخلص بعض أولئك المستضعفين في مكة الذي أبقاهم ذووهم في مكة، وقهروهم ومنعوهم من الهجرة، فكانت تلك المهمات.

وكان لمرثد ﷺ صديقة في مكة، ينزل عليها سرًّا، كان يحبها وتحبه وتحفظ سره وعلاقته بها، اسمها: (عناق)، لكن أمرًا حدث في المدينة أثار غضب تلك الحسناء، فخانت مرثد ونادت قريشًا لكي يحاصروه ويقبضوا عليه، فماذا حدث لمرثد بن أبي مرثد ﷺ.

عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، قَالَ: كَانَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ: مَرْثَدُ بْنُ أَبِي مَرْثَدٍ، [وَكَانَ رَجُلًا شَدِيدًا]، وَكَانَ رَجُلًا يَحْمِلُ الأَسْرَى مِنْ مَكَّةَ حَتَّى يَأْتِيَ بِهِمُ المَدِينَةَ، قَالَ: وَكَانَتْ امْرَأَةٌ بَغِيٌّ بِمَكَّةَ يُقَالُ لَهَا: عَنَاقٌ وَكَانَتْ صَدِيقَةً لَهُ، وَإِنَّهُ كَانَ وَعَدَ رَجُلًا مِنْ أُسَارَى مَكَّةَ يَحْمِلُهُ، قَالَ: فَجِئْتُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى ظِلِّ حَائِطٍ مِنْ حَوَائِطِ مَكَّةَ فِي لَيْلَةٍ مُقْمِرَةٍ، قَالَ: فَجَاءَتْ عَنَاقٌ فَأَبْصَرَتْ سَوَادَ ظِلِّي بِجَنْبِ الحَائِطِ فَلَمَّا انْتَهَتْ إِلَيَّ عَرَفَتْ، فَقَالَتْ: [مَنْ هَذَا] مَرْثَدٌ؟ فَقُلْتُ: مَرْثَدٌ، فَقَالَتْ: مَرْحَبًا وَأَهْلًا [يَا مَرْثَدُ]، هَلُمَّ فَبِتْ عِنْدَنَا اللَّيْلَةَ [انْطَلِقِ اللَّيْلَةَ فَبِتْ عِنْدَنَا فِي الرَّحْلِ]، قَالَ: قُلْتُ: يَا عَنَاقُ حَرَّمَ اللهُ الزِّنَا، قَالَتْ: يَا أَهْلَ الخِيَامِ، هَذَا

الرَّجُلُ [الدُّلْدُلُ] يَحْمِلُ أُسَرَاءَكُمْ [مِنْ مَكَّةَ إِلَى المَدِينَةِ]، قَالَ: فَتَبِعَنِي ثَمَانِيَةٌ، وَسَلَكْتُ الخَنْدَمَةَ (جبل عند أحد مداخل مكة)، فَانْتَهَيْتُ إِلَى كَهْفٍ أَوْ غَارٍ فَدَخَلْتُ، فَجَاؤُوا حَتَّى قَامُوا عَلَى رَأْسِي، فَبَالُوا فَظَلَّ [فَطَارَ] بَوْلُهُمْ عَلَى رَأْسِي، وَعَمَّاهُمُ اللهُ عَنِّي، قَالَ: ثُمَّ رَجَعُوا وَرَجَعْتُ إِلَى صَاحِبِي فَحَمَلْتُهُ، وَكَانَ رَجُلًا ثَقِيلًا، حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى الإِذْخِرِ [الْأَرَاكِ]، فَفَكَكْتُ عَنْهُ أَكْبُلَهُ [كَبْلَهُ]، فَجَعَلْتُ أَحْمِلُهُ وَيُعْيِينِي حَتَّى قَدِمْتُ المَدِينَةَ، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنْكِحُ عَنَاقًا؟ فَأَمْسَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيَّ شَيْئًا حَتَّى نَزَلَتْ: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [النور]، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا مَرْثَدُ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ، فَلَا تَنْكِحْهَا**» [فَدَعَانِي، فَقَرَأَهَا عَلَيَّ وَقَالَ: «لَا تَنْكِحْهَا»]. [النسائي في النكاح (٣٢٢٨)، والترمذي في تفسير القرآن (٣١٧٧)، واللفظ له والزوائد للنسائي، وقال الشيخ الألباني: حسن الإسناد].

لأنها تحترف الزنا وتصرُّ عليه، أما إذا تابت الزانية وتاب الزاني، وباب التوبة مفتوح إلى يوم القيامة، فيجوز عند ذلك، أما إذا لم يتوبوا فهم أمراض متنقلة، تنخر الأجساد والمجتمعات.

إذًا فهناك رجال يمكن الاعتماد عليهم للقيام بمهام خطيرة ودقيقة، والنبي ﷺ لم يتردد في بثهم هنا وهناك، فالمدينة في خطر، والدعوة إلى التوحيد تحتاج إلى دولة قوية وذكية لنشرها، كان لمرثد دور، وكان لعبد الله بن أنيس دور آخر، وللذين داخل المدينة أدوار يؤدونها تحت قيادة هذا النبي الحكيم ﷺ».

[السيرة النبوية للصوياني ٢/ ٢٩٠-٢٩٣].

١٧ ـ المسلم إذا خشي الأسر له أن يقاتل أو يستأسر:

الاستئسار: تسليم الجندي نفسه للأسر. [ينظر: آثار الحرب ـ د/ وهبة الزحيلي ص٤٣٩].

يقول د/ العيساوي: «إذا طُوِّق الجنود من قبل العدو وعلموا أن لا طاقة لهم به ولا نجاة لهم إلا بأسر فهل لهم الدفاع عن أنفسهم حتى الموت أو تسليم أنفسهم للعدو؟

والقاعدة العامة: أنه لا يجوز الاستسلام لكافر، ولكن يجيز الإسلام لمثل هؤلاء الجنود في تلك الحالة، إما أن يدافعوا عن أنفسهم حتى الموت، وإما أن يسلموا أنفسهم للعدو إذا لم يمكنهم الهرب بشرط أن يعلموا أنهم بعد الأسر لا يُقتلون. [آثار الحرب للزحيلي ص٤٣٩].

وعلى ذلك نص الفقهاء، فقال الشافعية: إن جوز المكلف الأسر والقتل فله أن يدفع عن نفسه وأن يستسلم؛ لأن المكافحة حينئذ استعجال للقتل، والأسر يحتمل الخلاص، هذا إن علم أنه إن امتنع من الاستسلام قُتل، وإلا امتنع عليه الاستسلام.

[ينظر: مغني المحتاج للشربيني ٤/ ١٢٩، تحفة المحتاج بشرح المنهاج لابن حجر الهيثمي ٨/ ٢٧].

وقال الحنابلة: وإذا خشي المسلم فالأولى له أن يُقاتِل حتى يُقتل، ولا يسلم نفسه للأسر؛ لأنه يفوز بثواب الدرجة الرفيعة، ويسلم من تحكم الكفار عليه بالتعذيب والاستخدام والفتنة، وإن استأسر جاز.

[المغني لابن قدامة ٨/ ٤٥٨، وكشاف القناع على متن الإقناع للبهوتي ٣/ ٣٦].

وقال المالكية: حمل رجل أحاط به العدو على جيشه خوف الأسر خفيف.

وقال ابن رشد: وله أن يستأسر اتفاقًا. **[التاج والإكليل للمواق ٣/ ٣٥٧].**

وعن الحسن قال: لا بأس أن يستأسر الرجل إذا خاف أن يُغلب.**[شرح صحيح البخاري للعيني ٤/ ٢٩٤].**

والدليل على جواز الاستئسار عمومًا حادثة سرية الرجيع.

فقد استدل بها المحدثون على أنه يجوز لمن لم يقدر على المدافعة ولا أمكنه الهرب أن يستأسر، بدليل صنيع الثلاثة الذين نزلوا على عهد هذيل وميثاقها.

[نيل الأوطار للشوكاني ٨/ ٨٢، آثار الحرب للزحيلي ص٤٤٢].

وترجم البخاري على هذا الحديث «باب: هل يستأسر الرجل ومن لم يستأسر؟».

[البخاري بشرح الكرماني ١٣/ ٤٣، باب ٢٨٣٨].

ووجه الاستدلال بذلك أنه لم يُنقل أن النبي ﷺ أنكر ما وقع من الثلاثة المذكورين من الدخول تحت أسر الكفار، ولم ينكر ما وقع من السبعة المقتولين لإصرارهم على الامتناع من الأسر.

[آثار الحرب للزحيلي ص٤٤٣].

ولو كان ما وقع من إحدى الطائفتين غير جائز لأخبر ﷺ أصحابه بعدم جوازه وأنكره، فدلَّ تركُ الإنكار على أنه يجوز لمن لا طاقة له بعدو أن يمتنع من الأسر، وأن يستأسر**[نيل الأوطار للشوكاني ٨/ ٨٢]**، فمن قُتل منهم أخذ بالعزيمة، ومن استأسر أخذ بالرخصة، وكلهم محمود غير مذموم ولا ملوم، فدل ذلك على جواز الدفاع حتى الموت، أو طلب اعتبارهم أسرى حرب. **[آثار الحرب للزحيلي ص٤٤٣].**

[فقه السرايا للعيساوي ١٢٢-١٢٤].

١٨ ـ للأسير قبول الأمان:

يقول د/ البوطي: «يُستدل مما سبق أن للأسير في يد العدو أن يمتنع من قبول الأمان، ولا يمكِّن من نفسه ولو قُتل، ترفعًا عن أن يجري عليه حكم كافر، كما فعل عاصم رضي الله عنه.

فإن أراد الترخص، فله أن يستأمن، مترقبًا الفرصة مؤملًا الخلاص كما فعل خبيب وزيد رضي الله عنهما .

ولكن لو قَدر الأسير على الهرب لزمه ذلك في الأصح، وإن أمكنه إظهار دينه بينهم؛ لأن الأسير في يد الكفار مقهور مهان، فكان من الواجب عليه تخليص نفسه من هوان الأسر ورقه».

[فقه السيرة للبوطي ٢٠٠].

ويقول أ/ حوى: «إن من حق المسلم ألا يستأسر للسلطة الكافرة سواء كانت كافرة كفرًا أصليًّا أو عارضًا إذا كان الطلب بظلم، بل من حق المسلم ألا يستأسر وأن يقاتل إذا كان الطلب من ظالم بظلم، وهذا الذي فعله الحسين ﷺ.

وهذا يفتح أمام الحركات الإسلامية بابًا واسعًا في التعامل مع الأحداث، فمن حق أبناء هذه الحركة أن يستأسروا إذا طلبوا مظلومين، ومن حقهم أن يقاتلوا حتى الموت ما دام الطالب لا يطلبهم بعدل، وما دامت السلطة غير إسلامية». [الأساس في السنة لحوى ٢/ ٦٢٢].

١٩ـ مَنْ هو قاتل الحارث بن عامر؟:

قال الصالحي: «وقع في الصحيح في حديث: (وَكَانَ خُبَيْبٌ ﷺ هُوَ قَتَلَ الحَارِثَ [بن عامر] يَوْمَ بَدْرٍ). [البخاري في المغازي (٤٠٨٦)].

واعتمد على ذلك البخاري، فذكر خبيب بن عدي ﷺ فيمن شهد بدرًا.

[البخاري في المغازي باب تسمية من سمي من أهل بدر تعليقًا].

قال في الفتح: وهو اعتماد متجه.

وتعقب الحافظ أبو محمد الدمياطي، وتبعه في العيون [عيون الأثر ١/ ٤٢٦] بأن أهل المغازي لم يذكر أحد منهم أن خبيب بن عدي ﷺ ممن شهد بدرًا ولا قتل الحارث بن عامر، إنما ذكروا أن الذي قتل الحارث بن عامر ببدر هو خبيب بن إساف، وهو غير خبيب بن عدي وهو خزرجي، وخبيب بن عدي أوسي.

قال الحافظ: (ويلزم من الذي قال ذلك رد هذا الحديث الصحيح، فلو لم يقتل خبيب بن عدي الحارث بن عامر، ما كان لاعتناء آل الحارث بن عامر بأسر خبيب معنى، ولا بقتله مع التصريح في الحديث الصحيح أنهم قتلوه به، ولكن يحتمل أن يكونوا قتلوا خبيب بن عدي لكون خبيب بن إساف ـ بهمزة مكسورة وقد تبدل تحتية وبسين مهملة ـ قتل الحارث بن عامر، على عادتهم في الجاهلية بقتل بعض القبيلة عن بعض، ويحتمل أن يكون خبيب بن عدي شرك في قتل الحارث. والعلم عند الله).

[سبل الهدى والرشاد لصالحي ٦/ ٧٥].

ويطيل الشيخ عرجون النفس في رد قول ابن حجر تحت عنوان «**ذِكر خبيب بن عدي ﷺ فيمن شهد بدرًا لم يعرفه أحد من أهل المغازي**» فيقول: «في بحث سرية (الرجيع) إشكال غير مدفوع إلا بتعسف التأويل المتعصب للأسانيد، فقد ذكر الحافظ ابن حجر في (الفتح) وهو يتكلم على قول أبي هريرة ﷺ في حديثه عند البخاري: وكان خبيب هو قتل الحارث بن عامر يوم بدر، واعتمد البخاري على ذلك، فذكر

خبيب بن عدي فيمن شهد بدرًا، وهو اعتماد متجه، لكن تعقبه الدمياطي ـ شرف الدين، عبد المؤمن بن خلف، أحد الأعلام الأفذاذ في القرن السابع ـ فقال: إن أهل المغازي لم يذكر أحد منهم أن خبيب بن عدي ﷺ شهد بدرًا، ولا هو قتل الحارث بن عامر، وإنما ذكروا أن الذي قتل الحارث بن عامر ببدر هو خبيب بن إساف هو غير خبيب بن عدي، وخبيب بن إساف أنصاري خزرجي، وخبيب بن عدي أنصاري أوسي.

قال ابن حجر يجيب عن هذا الاعتراض القوي الذي لم ينكره أحد من الباحثين في القديم ولا في الحديث: قلت ـ أي ابن حجر ـ يلزم من كلام الذي قال ذلك رد هذا الحديث الصحيح ـ وما في ذلك؟ وصحة الحديث هنا ترتبط بصحة السند، وقد عارضها إجماع أولي الشأن من علماء المغازي بأن متن هذا الحديث غير صحيح تاريخيًّا، وقاعدتهم المتفق عليها أن صحة السند لا تستلزم صحة المتن، فرد الحديث الصحيح سندًا لما عارضه من ضعف أو وهم في المتن لا يهدم شيئًا استقام بناؤه.

ثم قال ابن حجر مشيِّدًا لكلامه: فلو لم يقتل خبيب بن عدي الحارث بن عامر ما كان لاعتناء بني الحارث بن عامر بأسر خبيب معنى، ولا بقتله مع التصريح في الحديث الصحيح ـ سندًا ـ أنهم قتلوه به.

ثم نكص الحافظ على عقبيه متراجعًا بما يهدم إجابته، فقال: لكن يحتمل أنهم قتلوه ـ أي خبيب بن عدي ـ لكون خبيث بن إساف قتل الحارث على عادتهم في الجاهلية بقتل بعض القبيلة عن بعض، ويحتمل أن يكون خبيب بن عدي شرك في قتل الحارث.

مناقشة ابن حجر في انتصاره لصحة السند مع ضعف المتن:

هذا كلام ابن حجر، أما النظر فيه فمن وجوه:

أولًا: إن صحة البخاري الذي اعتمد عليه في ذكر خبيب بن عدي ﷺ فيمن شهد بدرًا لا تتلاقى مع كلام الدمياطي الذي جزم بأن أهل المغازي لم يذكر أحد منهم أن خبيب بن عدي ﷺ شهد بدرًا، وهذا حكاية عن ثقة إمام لإجماع أهل هذا الشأن بأن خبيب بن عدي ﷺ لم يذكره أحد من أهل المغازي فيمن شهد بدرًا، وهذا لا ينافي صحة هذا الحديث سندًا، والحديث ليس فيه نص على خبيب بن عدي، بل ذكر خبيب غير منسوب، فاحتمال أنه خبيب بن إساف قائم لم يُدفع، فلا وجه لاعتماد البخاري على هذا النص الخالي من نسبة خبيب لعد خبيب بن عدي فيمن شهد بدرًا، وحينئذ فلا وجه مطلقًا لقول الحافظ ابن حجر: وهو اعتماد متجه، ومن المعروف عند أهل الحديث أن صحة السند لا يلزمها صحة المتن، فالحديث صحيح سندًا ولا دلالة في متنه على ما اعتمد عليه البخاري، فلعل متن الحديث دخله الوهم ففسر بما لا دلالة له عليه، ولا سيما مع اتحاد الاسم، وأما أسر خبيب بن عدي فلما قيل إنه هو الذي قتل

الحارث بن عامر، والنص لا يمنع منه، ولكن كلام الدمياطي صريح في رد هذا التفسير، لا في رد صحة الحديث سندًا ـ إذ لم يتعرض الدمياطي لذلك قط.

ثانيًا: إن قول الحافظ ابن حجر: فلو لم يقتل خبيب بن عدي الحارث بن عامر ما كان لاعتناء أبناء الحارث بن عامر بأسر خبيب معنى ولا بقتله.

هذا فرض لا وزن له في الرد على اعتراض الدمياطي؛ لأن أبناء الحارث بن عامر جاءتهم هذيل بخبيب بن عدي أسيرًا، وكان أبوهم الحارث بن عامر قد قتله المسلمون في بدر، وشاع على الألسنة أن الذي قتله خبيب الأنصاري، والأنصار كان فيهم رجلان كلاهما يسمى خبيبًا، وأحدهما هو الذي قتل الحارث قطعًا، فهل من المعقول المتعارف في عادات العرب وأعرافهم الجاهلية في أخذ الثأر أن لا يعتني أبناء الحارث بن عامر بخبيب هذا الذي جاءتهم به هذيل أسيرًا؟ ثم يجادلون في أنه هو الذي قتل أباهم أو آخر مسمى باسمه، ثم يردون هذا الذي أصبح في أيديهم يأخذون به ثأرهم من المسلمين، سواء أكان هو الذي قتل أباهم أو سَمِيَّه وهما أنصاريان، هذا بعيد جدًّا عن المتعارف في عادات العرب وأخذهم الثأر حيث أمكنهم من القبيلة.

على أن هذا الوجه في كلام ابن حجر للرد على اعتراض الدمياطي بعيد جدًّا عن سَمْت الكلام الذي كان محوره صحة الحديث واعتماد البخاري في ذكره خبيب بن عدي ﷺ فيمن شهد بدرًا.

ويؤكد هذا من قولنا قول ابن حجر نفسه: لكن يحتمل أن يكون قتلهم لخبيب بن عدي لكون خبيب بن إساف قتل الحارث بن عامر على عادتهم في الجاهلية بقتل بعض القبيلة عن بعض، أي أنهم قتلوا خبيب بن عدي بخبيب بن إساف الذي قتل أباهم الحارث بن عامر، والخبيبان أنصاريان يسد أحدهما في أخذ الثأر عن صاحبه، فقتلوا من تمكنوا من قتله على عادة الجاهلية.

ومما بَعُد جدًّا عن مَهْيع الكلام وسننه وفارق معالم البحث قول ابن حجر: ويحتمل أن يكون خبيب بن عدي شَرَكَ في قتل الحارث بن عامر؛ لأن هذا الاحتمال لا يدخل في صميم الكلام ولا في حواشيه، ولا يتعلق بأهدابه وشواشيه، ولا ندري كيف ساغ للحافظ ابن حجر ذكره؟ إن القضية الأصلية في اعتراض الدمياطي هي أن خبيب بن عدي لم يشهد بدرًا بإجماع أهل المغازي، فكيف تتحقق مشاركته في قتل الحارث بن عامر الذي قُتل في بدر بإجماع مؤرخي السيرة والمغازي؟ والمشاركة في قتله لا تثبت إلا إذا ثبت بنص تاريخي صحيح أن خبيب بن عدي ﷺ شهد بدرًا، وهذا هو موضع النزاع».

[محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٥٣-٥٦].

٢٠ ـ تعظيم سنة النبي ﷺ:

يقول أ/ فريد: «وفي الحديث تعظيم الصحابة لسنة النبي ﷺ، وكيف أن خُبيبًا ﷺ مع أنه في أسر المشركين، ويعلم أنه سيُقتل بين عشية أو ضحاها، ومع ذلك كان حريصًا على سنة الاستحداد، واستعار الموسى لذلك، وفى هذا واعظ لمن يستهين بكثير من السنن، بل وكثير من الواجبات بحجة أن لا ينبغي أن ينشغل المسلمون بذلك للظروف التي تمر بها الأمة، وفى الواقع لا منافاة بين تعظيم السنة والدخول في شرائع الإسلام كافة، والسعي لإقامة شرع الله، والله تعالى يقول: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج: ٤٠]، وقال ﷻ: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧﴾ [محمد ﷺ].

ونصر الله ﷻ هو نصر دينه والعمل بشرعه، والله المستعان. [وقفات تربوية مع السيرة النبوية لفريد ٢١٦].

٢١ ـ سنة الاستحداد:

يقول د/ القرشي: «استدل العلماء من فعل خُبيب ﷺ من الاستحداد، واستعارة الموسى لذلك، على استيثار الاستحداد لمن أُسِرَ ولم يُقتَل، والتنظيف لمن يصنع بعد القتل لئلا يطلع منه على قبح عورة.

[عمدة القاري ١٤/ ٤٠٧].

والاستحداد من سنن الفطرة، كما أخبر بذلك الرسول ﷺ: «**الْفِطْرَةُ خَمْسٌ أَوْ خَمْسٌ مِنْ الْفِطْرَةِ: الْخِتَانُ، وَالِاسْتِحْدَادُ، وَنَتْفُ الْإِبْطِ، وَتَقْلِيمُ الْأَظْفَارِ، وَقَصُّ الشَّارِبِ**».

[البخاري في اللباس (٥٨٨٩)، وفي الاستئذان (٦٢٩٧)، ومسلم في الطهارة (٢٥٧)].

قال الإمام أحمد: والاستحداد، حَلقُ العَانَةِ (الشعر النابت في أسفل البطن حول ذكر الرجل، وقبل المرأة، وفوقهما. القاموس الفقهي ٢٦٨، معجم لغة الفقهاء ٣٠٢، نيل الأوطار ١/ ٣٤٧)، وهو مستحب؛ لأنه من الفطرة، ويفحش بتركه، فاستحبت إزالته، وبأي شيء أزاله صاحبه فلا بأس لأن المقصود إزالته. [المغنى ١/ ١٠٠].

قال الإمام النووي: وقد ثبت عن أنس ﷺ قال: «وُقِّتَ لَنَا فِي قَصِّ الشَّارِبِ، وَتَقْلِيمِ الْأَظْفَارِ، وَنَتْفِ الْإِبِطِ، وَحَلْقِ الْعَانَةِ أَنْ لَا نَتْرُكَ أَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً». [مسلم في الطهارة (٢٥٨)].

ومعنى الحديث أنهم لا يؤخرون فعل هذه الأشياء، فإن أخروها فلا يأخرونها أكثر من أربعين ليلة، وليس معناه الأذن في التأخير أربعين مطلقًا، وقد نص الشافعي والأصحاب رحمهم الله: على أنه يستحب تقليم الأظافر والأخذ من هذه الشعور يوم الجمعة، والله أعلم. [المنهاج شرح مسلم ص٢٦٩، المجموع ١/ ٣٣٩].

[مرويات السرايا والبعوث النبوية للقرشي ١٢١-١٢٢].

٢٢ ـ الترفع عن الأخلاق الذميمة:

يقول د/ الحميدي: «جرى لخبيب بن عدي ﷺ وهو في محبسه مواقف وعبر، فمن ذلك خبره مع بُنيِّ المرأة التي كان محبوسًا عندها حينما فزعت لما رأته معه والموسى بيده فقال: «**أَتَخْشَيْنَ أَنْ أَقْتُلَهُ؟! مَا كُنْتُ لأَفْعَلَ ذَاكِ إِنْ شَاءَ اللهُ**»، وجاء في رواية الواقدي: «**مَا كُنْتُ لِأَقْتُلَهُ، وَمَا نَسْتَحِلُّ فِي دِينِنَا الْغَدْرَ**».

وهذا مثل من عظمة الصحابة ﷺ حيث يطبقون أخلاق الإسلام على أنفسهم مع أعدائهم وإن كانوا قد ظلموهم، وهذا دليل على وعيهم وكمال إيمانهم». [التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ٣٨].

٢٣ ـ إغاظة الأعداء بالتجمل بالصبر على غدرهم:

يقول د/ الحميدي: «ومن ذلك تجمُّل خبيب ﷺ بالصبر وعدم إشفاقه من القتل، وفي ذلك تقول ماوية مولاة بني عبد مناف التي كان محبوسًا عندها: «فَقُلْتُ لَهُ: يَا خُبَيْبُ، هَلْ لَكَ مِنْ حَاجَةٍ؟ قَالَ: **لَا، إِلَّا أَنْ تَسْقِيَنِي الْعَذْبَ، وَلَا تُطْعِمِينِي مَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ، وَتُخْبِرِينِي إِذَا أَرَادُوا قَتْلِي**، قَالَتْ: فَلَمَّا انْسَلَخَتْ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ، وَأَجْمَعُوا عَلَى قَتْلِهِ أَتَيْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ، فَوَ اللهِ مَا رَأَيْتُهُ اكْتَرَثَ لِذَلِكَ»، ذكره الواقدي في روايته، وذكر أن ماوية هذه قد أسلمت فيما بعد وحسن إسلامها.

ومن جلَده وصبره طلبه أن يدعوه يركع ركعتين، فكان أول مَنْ سَنَّ الركعتين عند القتل، وكذلك ما أنشده من الشعر السابق ذكره.

ولا شك أن هذا الجَلَد القوي والصبر الجميل يغيظ الأعداء؛ ويُضعف من مفعول كيدهم.

وهذا موقف يُذكر له ﷺ حيث كانت الصلاة هي آخر عمل قدمه قبل موته.

وجاء في رواية الواقدي أنهم ساوموه ليرجع عن دينه فأبى عليهم، وفي ذلك يقول فيما يرويه عن شيوخه: قَالُوا: فَلَمَّا صَلَّى الرَّكْعَتَيْنِ حَمَلُوهُ إِلَى الْخَشَبَةِ، ثُمَّ وَجَّهُوهُ إِلَى الْمَدِينَةِ وَأَوْثَقُوهُ رِبَاطًا، ثُمَّ قَالُوا: **ارْجِعْ عَنْ الْإِسْلَامِ، نُخْلِ سَبِيلَك!** قَالَ: **لَا وَاللهِ مَا أُحِبُّ أَنِّي رَجَعْت عَنْ الْإِسْلَامِ وَأَنَّ لِي مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا!** [المغازي للواقدي ١/ ٣٦٠].

وهذا مشهد من مشاهد الإيمان والفداء، حيث تعلو النفس الزكية عن الاستجابة لرغبات الأجسام، فتضرب الأمثلة الحية للموازين العادلة والمفاهيم العالية، فما في الأرض جميعًا من متاع لا يساوي شيئًا في جانب الهداية إلى الصراط المستقيم، والبقاء على قيد الحياة مطلب رخيص إذا قورن بالثبات على الإيمان والاستشهاد في سبيله، وقد جاء هذا المعنى في كلام خبيب كما في رواية الواقدي «فَجَعَلُوا يَقُولُونَ: **ارْجِعْ يَا خُبَيْبُ!** قال: **لَا أَرْجِعُ أَبَدًا!** قَالُوا: **أَمَا وَاللَّاتِ وَالْعُزَّى، لَئِنْ لَمْ تَفْعَلْ لَنَقْتُلَنَّكَ!** فَقَالَ: **إِنَّ قَتْلِي فِي اللهِ لَقَلِيلٌ!**».

وجاء في إحدى روايات البخاري: أن خبيبًا ﷺ لما قُتل مكث ساعة يوحد الله ويشهد أن محمدًا رسول الله ﷺ، ثم ذكر الراوي قول الأخنس بن شريق: **لو تُرك ذكر محمد على حال لتركه على هذه الحال، وما رأينا قط والدًا يَجِدُ بولد ما يجد أصحاب محمد بمحمد ﷺ.**

ومن ذلك ما أكرمه الله ـ تعالى ـ به من العنب الذي وصل إليه وهو موثق ولم يكن بمكة آنذاك شيء من العنب، وهذه الكرامة ساقها الله ـ تعالى ـ إليه ليثبته ولتعظم طمأنينته بأن الله ـ تعالى ـ معه وأنه قد رضي عنه، فإن شاء جل وعلا له الحياة فسينالها رغم ما هو فيه من حبس وقيود، وإن شاء أن يتخذه شهيدًا فهذا غاية ما يتمناه المؤمن الصادق.

ولقد كان في إشاعة هذا الخبر بين المشركين آية تهديهم إلى الإيمان بهذا الدين الذي كان سببًا في ظهور تلك الكرامة الخارقة للعادة على يد خبيب ﷺ، ولكنهم لم يكونوا متجردين من الهوى، ومن كان منهم قد تأثر بهذا العبرة وأمثالها فإنه لا يستطيع أن يظهر مشاعره خشيةً من زعماء الكفار».

[التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ٣٨-٤٠].

٢٤ ـ وداع الحياة بالأعمال الصالحة:

يقول د/ فيض الله: «قد ذكرنا في قصة خبيب ﷺ أنه صلى ركعتين قبل أن يُصْلَب، فأتمَّهما وأحسنهما، ولولا أنه خشي أن يظن المشركون أنه طوَّل جزعًا من الموت، لاستكثر من الصلاة.

ولم يُنْكَر عليه ذلك، فربما يكون أول من صلى قبل أن يقتل.

وإن الاتجاه إلى الله في مثل هذه الساعات الرهيبة، والوقوف بين يديه، في هيئة المناجاة، ومظهر العبودية السامي، في رضًا عميق، وتسليم مطلق، وخشوع تام، يجلبهما الثناء الجميل، والركوع والسجود، له مضمونه ودلالته الكافية، على تغلغل الإيمان في قلب الأسير، ورسوخ اليقين في ضميره.

ولا شك أن أفضل الأعمال الصلاة، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ العَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ، فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ**». [مسلم في الصلاة (٤٨٢)، وأبو داود في الصلاة (٨٧٥)، والنسائي في التطبيق (١١٣٧)، وأحمد عن أبي هريرة ﷺ (٩١٦٥). وقد أورده الهيثمي في المجمع رقم ٢٧٧١ بلفظ: عن عبد الله بن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ قال: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ العَبْدُ مِنْ رَبِّهِ إِذَا كَانَ سَاجِدًا». وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الكبير والبزار، وفيه مروان بن سالم، وهو ضعيف منكر الحديث].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**الصَّلَاةُ خَيْرُ مَوْضُوعٍ، فَمَنِ اسْتَطَاعَ أَنْ يَسْتَكْثِرَ فَلْيَسْتَكْثِرْ**».

[أورده الهيثمي في المجمع رقم ٣٥٠٥، وقال: رواه الطبراني في الأوسط، وفيه عبد المنعم بن بشير وهو ضعيف].

ولا أدل على تفاني العبد في مولاه ـ بعد الجهاد ـ من الصلاة؛ فليُقبِل الأسير المقتول على ربه نقيًّا مصلِّيًا، فما في الدنيا ـ بالنسبة إلى حاله ـ موقف يفرغ فيه الطاعة والعبودية لله، مثل الصلاة.

إنها راحة النفس، وراحة الحياة، وقرة العين، وأنس المؤمن بربه، فلا ضَيْر على خبيب ﷺ أن جعل آخر عهده بالدنيا، وقد دنا من الموت، أو دنا منه الموت، أن يصلي ركعتين، يودع فيهما كل ما يحمل بين جنبيه، من يقين وإيمان، وانقياد وإذعان، ورضا وتسليم لأمر رب العالمين». [صور وعبر لفيض الله ١٥٨-١٥٩].

٢٥ ـ سنة الركعتين عند القتل:

قال الصالحي: «قال أبو هريرة ﷺ كما في الصحيح: «**فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ سَنَّ الرَّكْعَتَيْنِ عِنْدَ القَتْلِ هُوَ**»، وجزم بذلك خلائق لا يحصون، وقدمه في الإشارة [لمغلطاي] ثم قال: وقيل أسامة بن زيد ﷺ حين أراد المكري الغدر به، قلت: كذا في نسختين من الإشارة: أسامة، وصوابه زيد بن حارثة والد أسامة ﷺ كما في الروض». [سبل الهدى والرشاد ٦/ ٧٦].

قَالَ السُّهَيْلِيُّ: «كَانَ خُبَيْبُ بْنُ عَدِيٍّ ﷺ أَوَّلَ مَنْ سَنَّ هَاتَيْنِ الرَّكْعَتَيْنِ عِنْدَ القَتْلِ لِلمُسْلِمِينَ.

وهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمَا سُنَّةٌ جَارِيَةٌ، وَكَذَلِكَ فَعَلَهُمَا حُجْرُ بْنُ عَدِيٍّ بْنِ الأَدْبَرِ حِينَ قَتَلَهُ مُعَاوِيَةُ ـ رَحْمَهُ اللهُ ـ وَذَلِكَ أَنَّ زِيَادًا كَتَبَ مِنْ البَصْرَةِ إِلَى مُعَاوِيَةَ يَذْكُرُ أَنَّ حُجْرًا وَأَصْحَابَهُ قَدْ خَرَجُوا عَلَى السُّلطَانِ، وَشَقُّوا عَصَا المُسْلِمِينَ، وَوَجَّهَ مَعَ الكِتَابِ صَكًّا فِيهِ شَهَادَةُ سَبْعِينَ رَجُلًا فِيهِمْ الحَسَنُ بْنُ أَبِي الحَسَنِ البَصْرِيُّ، وَابْنُ سِيرِينَ، وَالرَّبِيعُ بْنُ زِيَادٍ، وَجَمَاعَةٌ مِنْ عِلْيَةِ التَّابِعِينَ ذَكَرَهُمْ الطَّبَرِيُّ [تاريخ الطبري ٥/ ٢٦٩ وما بعدها] يَشْهَدُونَ بِمَا قَالَ زِيَادٌ مِنْ خُرُوجِ حُجْرِ بْنِ عَدِيٍّ عَلَيْهِ، وَكَانَ حُجْرٌ شَدِيدَ الإِنْكَارِ لِلظُّلْمِ غَلِيظًا عَلَى الأُمَرَاءِ، وَأَنْكَرَ عَلَى زِيَادٍ أُمُورًا مِنْ الظُّلْمِ فَخَرَجَ عَلَيْهِ، وَلَمْ يَكُنْ قَصْدُهُ الخُرُوجَ عَلَى مُعَاوِيَةَ، فَلَـمَّا حُمِلَ حُجْرٌ إِلَى مُعَاوِيَةَ فِي خَمْسَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ قَالَ لَهُ: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ! فَقَالَ لَهُ مُعَاوِيَةُ: أَوَأَنَا لِلمُؤْمِنَيْنِ أَمِيرٌ؟ ثُمَّ أَمَرَ بِقَتْلِهِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ صَلَّى حُجْرُ الرَّكْعَتَيْنِ، ثُمَّ لَقِيَ مُعَاوِيَةُ عَائِشَةَ بِالمَدِينَةِ فَقَالَتْ: **أَمَا اتَّقَيْتَ اللهَ يَا مُعَاوِيَةُ فِي حُجْرِ بْنِ عَدِيٍّ وَأَصْحَابِهِ؟** فَقَالَ: **أَوْ أَنَا قَتَلتُهُمْ! إِنَّمَا قَتَلَهُمْ مَنْ شَهِدَ عَلَيْهِمْ**، فَلـَمَّا أَكْثَرَت عَلَيْهِ قَالَ لَهَا: **دَعِينِي وَحُجْرًا فَإِنِّي مُلَاقِيهِ غَدًا عَلَى الجَادَّةِ**، قَالَتْ: **فَأَيْنَ عَزَبَ عَنْكَ حِلمُ أَبِي سُفْيَانَ؟** فَقَالَ: **حِينَ غَابَ عَنِّي مِثْلُكِ مِنْ قَوْمِي**.

لِمَ صَارَتْ صَلَاةُ خُبَيْبٍ ﷺ سُنَّةً؟: وَإِنَّمَا صَارَ فِعْلُ خُبَيْبٍ سُنَّةً حَسَنَةً، وَالسُّنَّةُ إِنَّمَا هِيَ أَقْوَالٌ مِنْ النَّبِيِّ ﷺ وَأَفْعَالٌ وَإِقْرَارٌ؛ لِأَنَّهُ فَعَلَهَا فِي حَيَاتِهِ ﷺ فَاسْتَحْسَنَ ذَلِكَ مِنْ فِعْلِهِ، وَاسْتَحْسَنَهُ المُسْلِمُونَ، مَعَ أَنَّ الصَّلَاةَ خَيْرُ مَا خُتِمَ بِهِ عَمَلُ العَبْدِ.

وَقَدْ صَلَّى هَاتَيْنِ الرَّكْعَتَيْنِ أَيْضًا زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ ﷺ مَوْلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَذَلِكَ فِي حَيَاتِهِ ﷺ، حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ ابْنِ طَاهِرِ بْنِ ظَاهِرٍ الإِشْبِيلِيُّ قَالَ: أَخْبَرَنَا أَبُو عَلِيٍّ الغَسَّانِيُّ، قَالَ: أَخْبَرَنَا أَبُو عُمَرَ العُمَرِيُّ، قَالَ: أَخْبَرَنَا أَبُو القَاسِمِ عَبْدُ الوَارِثِ بْنُ سُفْيَانَ بْنِ جَبْرُونٍ، قَالَ: أَخْبَرَنَا أَبُو مُحَمَّدٍ قَاسِمُ بْنُ أَصْبَغَ، قَالَ: أَخْبَرَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي خَيْثَمَةَ، أَخْبَرَنَا ابْنُ مَعِينٍ أَخْبَرَنَا، قَالَ: أَخْبَرَنَا يَحْيَى بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ بُكَيْرٍ المِصْرِيُّ، قَالَ: أَخْبَرَنَا اللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ، قَالَ: بَلَغَنِي أَنَّ زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ اكْتَرَى مِنْ رَجُلٍ بَغْلًا مِنْ الطَّائِفِ اشْتَرَطَ عَلَيْهِ الكَرِيُّ أَنْ يُنْزِلَهُ حَيْثُ شَاءَ، قَالَ: فَمَالَ بِهِ إِلَى خَرِبَةٍ، فَقَالَ لَهُ: انْزِل، فَنَزَلَ فَإِذَا فِي الخَرِبَةِ قَتْلَى كَثِيرَةٌ، قَالَ: فَلَـمَّا أَرَادَ أَنْ يَقْتُلَهُ، قَالَ: دَعْنِي أُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ، قَالَ: صَلِّ، فَقَدْ صَلَّى قَبْلَكَ هَؤُلَاءِ، فَلَمْ تَنْفَعْهُمْ صَلَاتُهُمْ شَيْئًا، قَالَ: فَلَـمَّا صَلَّيْتُ أَتَانِي لِيَقْتُلَنِي، قَالَ: فَقُلْتُ: يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، قَالَ: فَسَمِعَ صَوْتًا: لَا تَقْتُلْهُ، قَالَ: فَهَابَ ذَلِكَ فَخَرَجَ يَطْلُبُ أَحَدًا، فَلَمْ يَرَ شَيْئًا، فَرَجَعَ إِلَيَّ، فَنَادَيْتُ: يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، فَفَعَلَ ذَلِكَ ثلاثًا، فَإِذَا أَنَا بِفَارِسٍ بِيَدِهِ حَرْبَةُ حَدِيدٍ فِي رَأْسِهَا شُعْلَةٌ مِنْ نَارٍ فَطَعَنَهُ بِهَا، فَأَنْفَذَهُ مِنْ ظَهْرِهِ فَوَقَعَ مَيِّتًا، ثُمَّ قَالَ: لَـمَّا دَعَوْتَ المَرَّةَ الأُولَى: يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، كُنْتُ فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَلَـمَّا دَعَوْتَ المَرَّةَ الثَّانِيَةَ: يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ كُنْتُ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَلَـمَّا دَعَوْتَ المَرَّةَ الثَّالِثَةَ: يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ أَتَيْتُكَ. [الروض الأنف للسهيلي ٦/ ١٩٠-١٩٣].

قال الصالحي: «فهذا كما ترى غير متصل فلا يقاوم ما في الصحيح». [سبل الهدى والرشاد ٦/ ٧٦].

وقال الشيخ الوكيل: لا شك في أنها أسطورة. [الروض الأنف للسهيلي ٦/ ١٩٣ هامش ١].

٢٦ ـ إثبات الذات لله ﷻ:

يقول الصالحي: «قول سيدنا خبيب ﷺ: «**وَذَلِكَ فِي ذَاتِ الإِلَهِ**» إلى آخره.

قال أبو القاسم الراغب: «الذات تأنيث ذو وهي كلمة يتوصل بها إلى الوصف بأسماء الأجناس والأنواع، وتضاف إلى الظاهر دون المضمر، وتثنى وتجمع، ولا يستعمل شيء منها إلا مضافًا، وقد يسبقها لفظ الذات لعين الشيء، واستعملوها مفردة ومضافة وأدخلوا عليها الألف واللام وأجروها مجرى النفس والخاصة، فقالوا ذاته ونفسه وخاصته وليس ذلك من كلام العرب».

[المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ١٨٢-١٨٣ ط مصطفى الحلبي ١٩٦١م].

وقال القاضي: ذات الشيء نفسُه وحقيقته.

وقد استعمل أهل الكلام (الذات) بالألف واللام وغلطهم أكثر النحاة وجوزه بعضهم؛ لأنها ترد بمعنى النفس وحقيقة الشيء، وجاء في الشعر لكنه شاذ.

وقال ابن برهان ـ بفتح الباء الموحدة ـ: «إطلاق المتكلمين الذات في حق الله تعالى من جهلهم؛ لأن ذات تأنيث ذو، وهو جلت عظمته لا يصح له إلحاق تأنيث؛ ولهذا امتنع أن يُقال علَّامة وإن كان أعلم العالمين».

قال: «وقولهم الصفات الذاتية جهل منهم أيضًا؛ لأن النسب إلى ذات دَوْر».

وقال التاج الكندي في الرد على الخطيب ابن نباتة في قوله: كنه ذاته، ذات بمعنى صاحبة تأنيث ذو، وليس لها في اللغة مدلول غير ذلك، وإطلاق المتكلمين وغيرهم الذات بمعنى النفس خطأ عند المحققين.

وتعقب بأن الممتنع استعمالها بمعنى صاحبة، أما إذا قطعت عن هذا المعنى واستعملت بمعنى الاسمية فلا محذور كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾﴾ [آل عمران] أي بنفس الصدور.

وقد حكى المطرزي ﷺ أن كلَّ ذاتٍ شيءٌ وكلَّ شيءٍ ذاتٌ.

وقال الإمام النووي ﷺ في تهذيبه: «مراد الفقهاء بالذات الحقيقية»، وهذا اصطلاح المتكلمين وقد أنكره بعض الأدباء عليهم، وقال: إنه لا يُعرف في لغة العرب ذات بمعنى الحقيقة «وإنما ذات بمعنى صاحبة»، وهذا الإنكار منكر، بل الذي قاله الفقهاء والمتكلمون صحيح، فقد قال الإمام أبو الحسن الواحدي (في أول سورة الأنفال) في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ﴾ [الأنفال:١]، قال أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب: معنى ذات بينكم: أي الحالة التي بينكم، فالتأنيث عنده للحالة (وهو قول الكوفيين).

وقال الزجاج: معنى ذات بينكم: حقيقة وصلكم، والمراد بالبين الوصل، فالتقدير: فأصلحوا حقيقة وصلكم.

قال الواحدي: فذات عنده بمعنى النفس (كما يقال ذات الشيء ونفسه). انتهى.

[تهذيب الأسماء واللغات للنووي ق١ من تهذيب اللغات ص ١١٣].

وعلى جواز ذلك مشى الإمام البخاري، فقال في كتاب التوحيد من صحيحه: «باب ما يُذكر في الذات والنعوت». **[كتاب التوحيد باب ما يذكر في الذات والنعوت وأسامي الله ﷻ رقم ٧٤٠٢].**

فاستعملها على نحو ما تقدم من أن المراد بها نفس الشيء وحقيقته على طريقة المتكلمين في حق الله تعالى، ففرَّق بين النعوت والذات، واستدل البخاري على ذلك بقول خبيب السابق.

وتعقبه السبكي ﷺ بأن خبيبًا ﷺ لم يرد بالذات الحقيقة التي هي مراد البخاري، وإنما مراده: في سبيل الله أو في طاعته.

قال الكرماني: وقد يجاب بأن غرضه إطلاق الذات في الجملة، قال في الفتح: والاعتراض أقوى من الجواب.

واستدل غيره بقوله ﷺ: «**لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام إِلَّا ثَلَاثَ كَذَبَاتٍ: ثِنْتَيْنِ مِنْهُنَّ فِي ذَاتِ اللهِ عز وجل...**». [البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٥٨)، ومسلم في الفضائل (٢٣٧١)].

وفي رواية: «**كل ذلك في ذات الله تعالى**».

وبحديث أبي الدرداء رضي الله عنه: «**لا يفقه كل الفقه حتى يمقت الناس في ذات الله تعالى**». رواه برجال ثقات إلا أن فيه انقطاعًا.

يقول حسان بن ثابت رضي الله عنه:

وَإِنَّ أَخَا الأَحْقَافِ إِذْ قَامَ فِيهِمْ يُجَاهِدُ فِي ذَاتِ الإِلَهِ وَيَعْدِلُ (١)

ونعقب بما تعقب به البخاري بأن المراد بالذات هنا الطاعة، أو بمعنى حق، أو من أجل، فهي كقوله تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُّ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الزمر:٥٦].

وأصرح من ذلك كله حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا: «**تفكروا في كل شيء، ولا تفكروا في ذات الله**». [ذكره العجلوني في كشف الخفا ١/ ٣٧١، وعزاه للأصبهاني في ترغيبه وأبي نعيم، وكنز العمال للمتقي الهندي ٣/ ١٠٦ رقم ٥٧٠٤، وقال السيوطي: رواه أبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس رضي الله عنهما، وضعفه الألباني في السلسلة الصحيحة ٤/ ٣٩٦ عند تعليقه على الحديث رقم ١٧٨٨، وضعيف الجامع الصغير رقم ٢٤٧٢].

فإن الطاعة وما ذكر معها لا تأتي هنا.

قال في الفتح: «فالذي يظهر جواز إطلاق ذات لا بالمعنى الذي أحدثه المتكلمون، ولكنه غير مردود إذا عُرِف أن المراد به النفس لثبوت لفظ النفس في الكتاب العزيز».

قلت: حديث ابن عباس رضي الله عنهما صريح بما ذهب إليه المتكلمون.

قال محققا سبل الهدى في الطبعة المصرية: «أوضح الفيومي في المصباح مادة ذات بقوله: إن دلت على الوصفية كتبت بالتاء؛ لأنها اسم، والاسم لا تلحقه الهاء الفارقة بين المذكر والمؤنث ... وقد تجعل اسمًا مستقلًّا فيعبر بها عن الأجسام فيقال: ذات الشيء أي حقيقته وماهيته.

وأما قولهم: في ذات الله، فهو مثل قولهم: في جنب الله ولوجه الله.

وأنكر بعضهم أن يكون ذلك في الكلام القديم؛ ولأجل ذلك قال ابن برهان: قول المتكلمين ذات الله جهل؛ لأن أسماءه لا تلحقها تاء التأنيث.. قال: وقولهم الصفات الذاتية خطأ أيضًا، فإن النسبة إلى ذات

(١) رواية الديوان ص ٣٢٠: **وَإِنَّ أَخَا الأَحْقَافِ إِذْ يَعْذِلُونَهُ يَقُومُ بِدِينِ اللهِ فِيهِمْ فَيَعْدِلُ**

ذوي؛ لأن النسبة ترد الاسم إلى أصله، وما قاله ابن برهان فيما إذا كانت بمعنى الصاحبة والوصف مسلم، والكلام فيما إذا قطعت عن هذا المعنى واستعملت في غيره بمعنى الاسمية نحو ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾﴾[آل عمران]، والمعنى: عليم بنفس الصدور أي ببواطنها وخفياتها، وقد صار استعمالها بمعنى نفس الشيء عرفًا مشهورًا حتى قال الناس: ذات متميزة وذات محدثة، ونسبوا إليها على لفظها من غير تغيير، فقالوا: عيب ذاتي بمعنى جبل وخلق.

وقال النابغة:

مَجَلَّتُهُمْ ذَاتُ الإِلَهِ وَدِينُهُمْ قَوِيمٌ فَمَا يَرْجُونَ غَيْرَ العَوَاقِبِ

المجلة بالجيم الصحيفة، أي: كتابهم عبودية نفس الإله، وقالوا: الحجة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾﴾ [آل عمران وغيرها] ذات الشيء نفسه... وقال أيضًا في سورة السجدة، ونفس الشيء وذاته وعينه هؤلاء وصف له، وقال المهدوي في التفسير: النفس في اللغة على معان نفس الحيوان وذات الشيء الذي يخبر عنه، فجعل ذات الشيء ونفس الشيء مترادفين.

وإذا نقل هذا فالكلمة عربية ولا التفات إلى من أنكر كونها من العربية فإنها في القرآن وهو أفصح الكلام العربي.

ومما جاء في شرح هذه المادة في كليات أبي البقاء (بولاق سنة ١٢٨١هـ ص١٨٦: ١٨٧): الذات هو ما يصلح أن يعلم ويخبر عنه، فنقول عن مؤنث ذو، بمعنى الصاحب لأن المعنى القائم بنفسه بالنسبة إلى ما يقوم به يستحق الصاحبية والمالكية، ولمكان النقل لم يعبروا أن التاء للتأنيث عوضًا عن اللام المحذوفة فأجروها مجرى الأسماء المستقلة فقالوا: ذات قديم وذات محدث.

وقيل: التاء فيه كالتاء في الوقت والموت فلا معنى لتوهم التأنيث.

وقد يطلق الذات ويراد به الحقيقة، وقد يطلق ويراد به ما قام بذاته، وقد يطلق ويراد به المستقل بالمفهومية، ويقابله الصفة بمعنى غير مستقل بالمفهومية، وقد يستعمل استعمال النفس والشيء فيجوز تأنيثه وتذكيره، وقد يطلق الذات ويراد به الرضا، وعليه حديث: «**إن من أعظم الناس أجرًا الوزير الصالح من أمير يتبعه في ذات الله**»، والمراد منه طلب رضوان الله، وكذا حديث أن إبراهيم لم يكذب إلا في ثلاث ثنتين في ذات الله، أي في طلب مرضاته... انظر أيضًا: مادة ذات في كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي (١/ ٥٧١: ٥٧٣ طبعة استانبول سنة ١٣١٧هـ)». [**سبل الهدى والرشاد ٦/ ٧٩-٨٠ هامش ٣**].

ويقول ابن تيمية: «في قول خبيب ﷺ: «**وذلك في ذات الإله**» إثبات الذات لله ﷻ على وجه يليق بجلاله من غير تشبيه بخلقه، فهو سبحانه ليس كمثله شيء، وفي ذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ في

معرض إثباته الأسماء والصفات لله ﷻ وبعد سرد الأدلة على ذلك: «.. إلى أمثال هذه الآيات والأحاديث الثابتة عن النبي ﷺ في أسماء الرب ـ تعالى ـ وصفاته، فإن في ذلك من إثبات ذاته وصفاته على وجه التفضيل» إلى أن قال: «وأما من زاغ وحاد عن سبيلهم ـ أي: سبيل السلف الصالح ـ من الكفار والمشركين والذين أوتوا الكتاب، ومن دخل في هؤلاء من الصابئة والمتفلسفة والجهمية والقرامطة والباطنية ونحوهم فإنهم على ضد ذلك لا يثبتون إلا وجودًا مطلقًا لا حقيقة له عند التحصيل، فقولهم يستلزم غاية التعطيل، وغاية التمثيل، فإنهم يمثلونه بالممتنعات والمعدومات، والجمادات، ويعطلون الأسماء والصفات تعطيلًا يستلزم نفي الذات». [مجموعة الفتاوى (٣/ ١٠) بتحقيق عامر الجزار، وأنور الباز، ط٢٠، دار الوفاء بالمنصورة، مصر، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م].

ويقول أيضًا: «فإن الله ليس كمثله شيء لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، فإذا كان له ذات حقيقة لا تماثل الذوات، فالذات متصفة بصفات حقيقة لا تماثل سائر الصفات». [المصدر السابق ٣/ ٢١].

ويقول أيضًا: «ومذهب السلف بين التعطيل والتمثيل، فلا يمثلون صفات الله بصفات خلقه، كما لا يمثلون ذاته بذات خلقه، ولا ينفون عنه ما وصف به نفسه، ووصف به رسوله، فيعطلوا أسماءه الحسنى، وصفاته العليا، ويحرفوا الكلم عن مواضعه، ويلحدوا في أسماء الله وآياته». [المصدر السابق ٥/ ٢٠].

٢٧ ـ مدى حب الصحابة ﭫ لرسول الله ﷺ:

يقول د/ الشرباصي: «بماذا أجاب زيد على سؤال أبي سفيان: **أَنَشُدُكَ اللهَ يَا زَيْدُ! أَتُحِبُّ أَنَّ مُحَمَّدًا عِنْدَنَا الآنَ فِي مَكَانِكَ نَضْرِبُ عُنُقَهُ، وَأَنَّكَ فِي أَهْلِكَ؟**

هل فكر في النجاة والسلامة؟ هل سارع إلى باب الخلاص بعد أن أصابه ما أصابه؟

هل تردد أو تلجلج في النطق بما يليق به أن يقوله ويؤكده في هذا المجال؟ لا والذي برأ النسم، وأوجد من العدم، بل أقام زيد ﭫ الدليل على أنه من أولئك الأصحاب الأخيار الذين كانوا يفدون رسول الله ﷺ بأنفسهم وآبائهم وأمهاتهم؛ لأن الحق ﷻ يقول في سورة الأحزاب: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾[الأحزاب: ٦].

ولأن الرسول الصادق المصدوق ﷺ يقول: «**لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**». [البخاري في الإيمان (١٤، ١٥)، ومسلم في الإيمان (٤٤)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٥٠١٣، ٥٠١٤، ٥٠١٥)، وابن ماجه في المقدمة (٦٧)، وأحمد عن أنس ﭫ (١٢٤٠٣، ١٣٤٩٩)].

ولذلك رفع زيد ﭫ صوته يعلن به جوابه لأبي سفيان ، قَالَ: **وَاللهِ مَا أُحِبُّ أَنَّ مُحَمَّدًا الآنَ فِي مَكَانِهِ الَّذِي هُوَ فِيهِ تُصِيبُهُ شَوْكَةٌ تُؤْذِيهِ، وَأَنَا جَالِسٌ فِي أَهْلِي.**

فازداد أبو سفيان تعجبًا، وقال مقرًّا على الرغم منه بالحق الساطع: **مَا رَأَيْتُ مِنْ النَّاسِ أَحَدًا يُحِبُّ أَحَدًا كَحُبِّ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ مُحَمَّدًا**. [موسوعة الفداء في الإسلام للشرباصي ٢/ ٢٥٨].

ويقول د/ البوطي: «إذا تأملنا في جواب زيد بن الدَّثِنَةِ ﷺ هذا علمنا مدى المحبة التي كانت تنطوي عليها أفئدة الصحابة لرسولهم ﷺ، ولا ريب أن هذه المحبة من أهم الأسباب التي حببت إلى قلوبهم كل تضحية وبذل في سبيل دين الله تعالى والدفاع عن رسوله، ومهما بلغ المسلم في إيمانه، فإنه بدون هذه المحبة لرسول الله ﷺ يعتبر ناقص الإيمان، وإنها لحقيقة صرح بها رسول الله ﷺ إذ قال: «**لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**». [فقه السيرة للبوطي ٢٠١].

ويقول د/ الحميدي: وفي جوابه «تعبير بليغ عن حب الصحابة الشديد لرسول الله ﷺ الذي يصل إلى فدائه بأنفسهم فضلًا عن أموالهم، ولقد جاء في روية للواقدي مثل ذلك عن خبيب بن عدي ﷺ.

ولقد اعترف بذلك زعماء الكفار في ذلك العصر في هذا الخبر عن أبي سفيان، وفي خبر خبيب صدر عن الأخنس بن شريق، وصدور هذا الاعتراف من الزعماء يدل على شهرة ذلك إلى الحد الذي لا يستطيعون إخفاءه.

وإذا نظرنا إلى حب الصحابة لرسول الله ﷺ باعتباره زعيمًا لتجمع ديني، كما يراه الكفار المعاصرون له الذين لا يؤمنون بكونه رسولًا، فإن ذلك يبعث فيهم الإحباط واليأس من إمكانية القضاء عليه وعلى تجمعه لاستحالة وجود أهم عناصر الفشل والانهزام وهو ضعف الثقة بين الزعيم وجنوده، كما أن اعتراف زعماء الكفار بعدم وجود زعيم يحبه جنوده كحب المسلمين لرسول الله ﷺ يجب أن يقودهم إلى التفكير المتأمل في هذا الموضوع، لمعرفة سبب انفراد النبي ﷺ من بين الزعماء بهذه الميزة العظيمة، وبالتالي فإن ذلك يفرض عليهم الإيمان بكونه رسولًا من عند الله ﷻ؛ لأن هذه هي الخصوصية الوحيدة البارزة، وكونه ﷺ يتمتع بأعلى المواهب الإنسانية إنما هو من لوازم الرسالة، ولم يكن النبي ﷺ ينسب لنفسه أي تفوق في تلك المواهب، وإنما كان الشيء الوحيد الذي يدعو إليه هو الإيمان بكونه مرسلًا من الله ﷻ، ولكن الكفار كانوا في سبات عميق وحُجُب كثيفة من اتباع هوى النفوس وتقديس ميراث الآباء والأجداد والاعتزاز بالمجد الدنيوي، فلم يُعْمِلوا أفكارهم في المقارنة بين المقدمات والنتائج، فكانوا يطلقون المقدمات التي تُلزمهم بنتائجها، ولكنهم لا يبحثون في أسباب تلك المقدمات ولا يلزمون أنفسَهم بنتائجها. [التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ٤١-٤٢].

ويقول د/ فيض الله: «إن زيد بن الدَّثِنَةِ ﷺ يقرر في جوابه على أبي سفيان أنه لا يُؤْثِرُ ـ في موقفه هذا الحَرِج ـ أن ينتقل إلى أهله سالمًا ناجيًا من الموت المحتم، إذا كان في ذلك ما يمسُّ شخص الرسول ﷺ

بأيسر مكروه؛ وإنه ليُؤْثِر حياة الرسول ﷺ على حياته، مهما يكن في الأمر، فلا خير في حب دون موت في سبيله.

ولهذا عقَّب أبو سفيان ـ زعيم المشركين بعد أبي جهل ـ على هذا الكلام الصادق النفيس، بقوله: **مَا رَأَيْتُ مِنْ النَّاسِ أَحَدًا يُحِبُّ أَحَدًا كَحُبِّ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ مُحَمَّدًا.**

حب المال يحمل على النَّصَب في سبيله، وحب العلم يبعث على السفر والسهر على تحصيله؛ وحب الحياة والسلطان والمعالي يحمل النفس على التطامن والإذلال، وحب السكن والاستقرار يحمل على بذل المال والغوالي؛ وحب الله ورسوله يحمل على التضحية بالمال والنفس جميعًا وبكل شيء، في سبيل الدين والشرع، ومرضاة الله ورسوله.

عن عَبْدِ اللهِ بْنِ هِشَامٍ ﷺ قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ آخِذٌ بِيَدِ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ ﷺ فَقَالَ لَهُ عُمَرُ ﷺ: **يَا رَسُولَ الله لأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إلا مِنْ نَفْسِي،** فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ،** [حم: **لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ عِنْدَهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ**]»، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: **فَإِنَّهُ الآنَ وَالله لأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي،** فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**الآنَ يَا عُمَرُ**».

[البخاري في الأيمان والنذور (٦٦٣٢)، وأحمد عن عبد الله بن هشام ﷺ (١٨٠٤٧)].

ولا يكون الحبيب أحب من النفس، إلا إذا تطوع بها المحب في سبيله، وضحَّى بها من أجله؛ وليس وراء النفس مطلب لحبيب، ومن ضحى بنفسه لم يبخل بشيء، فليس فوقها زيادة لمستزيد.

وقد جاء في الحديث الشريف: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ: «**لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**».

وعَنْ أَنَسٍ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لا يُحِبُّهُ إلا لله، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ**».

[البخاري في الإيمان (١٦، ٢١)، ومسلم في الإيمان (٤٣)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٤٩٨٨)، وابن ماجه في الفتن (٤٠٣٣)، والدارمي في الرقاق (٢٧٤١)، وأحمد عن أنس ﷺ (١٢٣٥٤، ١٢٧٣٩، ١٢٩٩٤، ١٣١٨٠، ١٣٥٠٠، ١٣٥٤٧، ١٣٦٥٦)]. [صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة لفيض الله ١٥٤-١٥٥].

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ فِي يَدِهِ لَيَأْتِيَنَّ عَلَى أَحَدِكُمْ يَوْمٌ وَلا يَرَانِي، ثُمَّ لأَنْ يَرَانِي أَحَبُّ إِلَيْهِ مَنْ أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَمِثْلِهِمْ مَعَهُمْ**».

[مسلم في الفضائل (٢٣٦٤)، «قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ: المَعْنَى فِيهِ عِنْدِي لأَنْ يَرَانِي مَعَهُمْ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَهُوَ عِنْدِي مُقَدَّمٌ وَمُؤَخَّرٌ»، وأحمد عن أبي هريرة ﷺ (٢٧٣٥٨، ٩٥٠٥، ١٠١٧٣)].

وعَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: «**لَمْ يَكُنْ شَخْصٌ أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَكَانُوا إِذَا رَأَوْهُ ﷺ لَمْ يَقُومُوا لِمَا يَعْلَمُونَ مِنْ كَرَاهِيَتِهِ لِذَلِكَ**». [الترمذي في الأدب (٢٧٥٤)، وقَالَ أَبُو عِيسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الوَجْهِ، وصححه الشيخ الألباني].

ويقول م/ أبو راس: «لقد تجلى في مواقف شهداء هذه السرية ذلك الحب العاصف الذي كان في نفوس الصحابة لرسولهم محمد ﷺ، يعلنون حبهم لقائدهم، لمعلمهم الخير والرشاد، لا في مواطن الأمن والسلامة والدعة والهدوء فحسب ولكن وهم يواجهون الموت.

ترى ما الذي زرع هذا الحب في قلوب هؤلاء الرجال لهذا القائد، لم يوزع مالًا لشراء الـذمم! ولم يبـث جواسيسًا لعد الأنفاس! ولم يقرِّب المتملقين، ولم يبعد المخلصين! لا وحاشا لرسول الله ﷺ ذلـك، ولكنـه المبعوث رحمة للعالمين، القائد الحاني، القائد العادل، الذي ما ميز يومًا من الأيام نفسه عن عامة إخوانـه ولا خاصتهم، بل كان كأحدهم يجوع إذا جاع أصحابه ويعرى إذا عروا، ويمشي إذا مشوا، ولا يرتـاح إلا بعـد أن يطمئن على جميع أفراد رعيته، فكان نتيجة هذا كله حبًّا حقيقيًّا لا حبًّا مزيفًا كاذبًا يـزول بـزوال مؤثراتـه وأسبابه». [تأملات حركية في سيرة المصطفى ﷺ لأبي راس ٢١٨-٢١٩].

٢٨ ـ التسليم لقضاء الله والتضحية في سبيله:

يقول م/ أبو راس: «وإن كان موقف زيد ﷺ سلط الضوء على حب أصحاب المصطفى ﷺ لقائدهم، فلقد جاء موقف خبيب ﷺ ليسلط الضوء على حب أصحاب المصطفى ﷺ لربهم الذي أخرجهم من الظلمات إلى النور، وعلى استعداد أصحاب المصطفى ﷺ للتضحية، وبنفس راضية مطمئنة بكل غال ورخيص في سبيل الحق.

لم يسلب القتل عقل «خبيب ﷺ»، ولم يخرجه الموقف الرهيب عن صوابه، ولكنه أقبل على القتلة بهدوء المسلم، وبتسليم المسلم لأمر الله ﷻ.

إن موقف «زيد» و «خبيب» ليفضح مواقف المسلمين في هذه الأيام الذين يستكثرون أية تضحية في سبيل الله مهما كانت يسيرة.

مسلمو هذه الأيام ـ إلا من رحم الله ـ الذين يفضلون استمرار الحياة ـ أي حياة ـ على الموت العزيز الشريف في جنب الله ﷻ وفي سبيله، مسلمو هذه الأيام الذين يفضلون الموت على الفراش الوثير ـ لفرط جبنهم ـ وإن كان في هذا الموت الذلة والمسكنة ـ مسلمو هذه الأيام باتوا يعبدون الله على حرف، فإن أصابهم خير رضوا، وإن أصابهم غير ذلك سخطوا على الله وعلى رسوله وعلى الإسلام وعلى الدعاة إلى الإسلام الذين أقنعوهم بالسير في ركاب الدعوة!

إن الحب الحقيقي لرسول الله ﷺ لا يتجلى فقط في حلقات الذكر...، ولكنه يتجلى في منافحة المغرضين الجبناء الذين يقدحون به ﷺ وبسيرته.

إن الحب الحقيقي لله ﷻ لا يتجلى في أيام السعة والهدوء، بقدر ما يتجلى في التسليم لقضاء الله وقدره، وفي الركض إلى الله ﷻ بغير زاد إلا بزاد التقى والرشاد، فهل يخرج المسلمون من النظرية إلى التطبيق؟!».

[تأملات حركية في سيرة المصطفى ﷺ لأبي راس ٢١٩-٢٢٠].

٢٩ ـ أثر مشهد مقتل خبيب ﷺ في نفوس الذين شهدوه:

لقد كان لمقتل خبيب بهذه الصورة أثره الشديد في نفوس الذين شهدوه، ويصور هذا الأثر ما رواه ابْنُ إِسْحَاقَ والواقدي فيما كان من **سَعِيدِ بْنِ عَامِرِ بْنِ حِذْيَمَ الْجُمَحِيَّ** ﷺ بعد إسلامه.

وقال ابن كثير: وَقَدْ قَالَ الأُمَوِيُّ: حَدَّثَنِي أَبِي قَالَ: قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَبَلَغَنَا أَنَّ عُمَرَ ﷺ قَالَ: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ نَسِيجِ وَحْدِهِ** (يريد رجلًا لا عيب فيه، وأصله أن الثوب النفيس لا يُنسج على منواله غيرُه) **فَلْيَنْظُرْ إِلَى سَعِيدِ بْنِ عَامِرٍ**». [البداية والنهاية ٥/ ٥١٠].

٣٠ ـ هل أُجيبت فيهم دعوة خبيب ﷺ:

قال في الروض: «فَإِنْ قِيلَ: فَهَل أُجِيبَتْ فِيهِمْ دَعْوَةُ خُبَيْبٍ ﷺ، وَالدَّعْوَةُ عَلَى تِلْكَ الحَالِ مِنْ مِثْلِ ذَلِكَ العَبْدِ مُسْتَجَابَةٌ؟

قُلنَا: أَصَابَتْ مِنْهُمْ مَنْ سُبِقَ فِي عِلمِ الله أَنْ يَمُوتَ كَافِرًا، وَمَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ فَلَمْ يَعْنِهِ خُبَيْبٌ ﷺ وَلَا قَصَدَهُ بِدُعَائِهِ، وَمَنْ قُتِلَ مِنْهُمْ كَافِرًا بَعْدَ هَذِهِ الدَّعْوَةِ فَإِنَّمَا قُتِلُوا بَدَدًا غَيْرَ مُعَسْكِرِينَ وَلَا مُجْتَمِعِينَ كَاجْتِمَاعِهِمْ فِي أُحُد، وَقَبْلَ ذَلِكَ فِي بَدْرٍ، وَإِنْ كَانَتْ الخَنْدَقُ بَعْدَ قِصَّةِ خُبَيْبٍ ﷺ فَقَدْ قُتِلَ مِنْهُمْ آحَادٌ فِيهَا مُتَبَدِّدُونَ، ثُمَّ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ جَمْعٌ وَلَا مُعَسْكَرٌ غَزَوْا فِيهِ، فَنَفَذَتْ الدَّعْوَةُ عَلَى صُورَتِهَا، وَفِيمَنْ أَرَادَ خُبَيْبٌ ﷺ وَحَاشَا لَهُ أَنْ يَكْرَهَ إِيمَانَهُمْ وَإِسْلَامَهُمْ». [الروض الأنف للسهيلي ٦/ ١٩٨].

٣١ ـ خبيب بن عدي ﷺ ودرس الفداء الذي ليس له نظير:

يقول أ/ خالد: «أفسحوا الطريق لهذا البطل يا رجال، وتعالوا من كل صوب ومن كل مكان، تعالوا، خفافًا وثقالًا، تعالوا مسرعين، وخاشعين، وأقبلوا، لتُلَقَّنُوا في الفداء درسًا ليس له نظير!

تقولون: أوكل هذا الذي قصصت علينا من قبل لم تكن دروسًا في الفداء ليس لها نظير؟

أجل كانت دروسًا، وكانت في روعتها تجلُّ عن المثيل وعن النظير.

ولكنكم الآن أمام أستاذ جديد في فن التضحية.

أستاذ لو فاتكم مشهده، فقد فاتكم خير كثير، جدٌّ كثير.

إلينا يا أصحاب العقائد في كل أمة وبلد، إلينا يا عشاق السموِّ من كل عصر وأَمَد.

وأنتم أيضًا يا من أثقلكم الغرور، وظننتم بالأديان والإيمان ظنَّ السَّوء.

تعالوا بغروركم..! تعالوا وانظروا أية عزة، وأية منعة، وأي ثبات، وأي مضاء، وأي فداء، وأي ولاء.

وبكلمة واحدة، أية عظمة خارقة وباهرة يفيئها الإيمان بالحق على ذويه المخلصين!

أترون هذا الجثمان المصلوب؟

إنه موضوع درسنا اليوم، يا كلَّ بني الإنسان!

هذا الجثمان المصلوب أمامكم هو الموضوع، وهو الدرس، وهو الأستاذ.

اسمه خبيب بن عديٍّ ﷺ.

احفظوا هذا الاسم الجليل جيِّدًا، احفظوه وانشدوه، فإنه شرف لكل إنسان، من كل دين، ومن كل مذهب، ومن كل جنس، وفي كل زمان!

إنه من أوس المدينة وأنصارها، تردد على رسول الله ﷺ مذ هاجر إليهم، وآمن بالله رب العالمين.

كان عذب الروح، شفاف النفس، وثيق الإيمان، ريَّان الضمير.

كان كما وصفه حسَّان بن ثابت ﷺ:

صَقْرًا تَوَسَّطَ فِي الأَنْصَارِ مَنْصِبُهُ سَمْحَ السَّجِيَّةَ مَحْضًا غَيْرَ مُؤْتَشِبِ (١)

ولما رفعت غزوة بدر أعلامها، كان هناك جنديًّا باسلًا، ومقاتلًا مقدامًا.

وكان من بين المشركين الذين وقعوا في طريقه إبَّان المعركة فصرعهم بسيفه الحارثُ بن عمرو بن نوفل. [**سبق مناقشة حضور خبيب بن عدي ﷺ غزوة بدر الكبرى**].

وبعد انتهاء المعركة، وعودة البقايا المهزومة من قريش إلى مكة عرف بنو الحارث مصرع أبيهم، وحفظوا جيدًا اسم المسلم الذي صرعه في المعركة: خبيب بن عديٍّ!

وعاد المسلمون من بدر إلى المدينة، يثابرون على بناء مجتمعهم الجديد.

وكان خبيب عابدًا، وناسكًا، يحمل بين جنبيه طبيعة الناسكين، وشوق العابدين.

هناك أقبل على العبادة بروح عاشق.. يقوم الليل، ويصوم النهار، ويقدِّس لله رب العالمين.

وجاءت سرية الرجيع وما كان فيها، وحين أسر خبيب وزيد ﷺ، وقادهما الرماة البغاة إلى مكة، حيث باعوهما لمشركيها.

---

(١) **السجية**: الطبيعة، وفي الديوان: (**حُلْوَ السَّجِيَّةِ**). **المحض**: الخالص، وأراد به هنا: خلوص نسبه. **والمؤتشب**: المختلط.

ودوَّى في الآذان اسم خبيب.

وتذكَّر بنو الحارث بن عامر قتيل بدر، تذكَّروا ذلك الاسم جيِّدًا، وحرَّك في صدورهم الأحقاد.

وسارعوا إلى شرائه، ونافسهم على ذلك بغية الانتقام منه أكثر أهل مكة ممن فقدوا في معركة بدر آباءهم وزعماءهم.

وأخيرًا تواصوا عليه جميعًا وأخذوا يعدُّون لمصير يشفي أحقادهم، ليس منه وحده، بل ومن جميع المسلمين!

أسلم خبيب ﷺ قلبه، وأمره، ومصيره لله رب العالمين.

وأقبل على نسكه ثابت النفس، رابط الجأش، معه من سكينة الله التي أفاءها عليه ما يذيب الصخر، ويلاشي الهول.

كان الله معه، وكان هو مع الله.

كانت يد الله عليه، يكاد يجد برد أناملها في صدره!

وحمل المشركون إلى خبيب ﷺ نبأ مصرع زميله وأخيه زيد ﷺ.

ظانين أنهم بهذا يسحقون أعصابه، ويذيقونه ضعف الممات وما كانوا يعلمون أن الله الرحيم قد استضافه، وأنزل عليه سكينته ورحمته.

وراحوا يساومونه على إيمانه، ويلوحون له بالنجاة إذا ما هو كفر بمحمد، ومن قبل بربه الذي آمن به، لكنهم كانوا كمن يحاول اقتناص الشمس برمية نبل!

أجل، كان إيمان خبيب ﷺ كالشمس قوة، وبعدًا، ونارًا، ونورًا.

كان يضيء كل من التمس منه الضوء، ويُدفئ كل من التمس منه الدفء، أما الذي يقترب منه ويتحدَّاه فإنه يحرقه ويسحقه.

وإذ يئسوا مما يرجون، قادوا البطل إلى مصيره، وخرجوا به إلى مكان يسمى التنعيم حيث يكون هناك مصرعه.

وما إن بلغوه حتى استأذنهم خبيب في أن يصلي ركعتين، وأذنوا له ظانين أنه قد يجري مع نفسه حديثًا ينتهي باستسلامه وإعلان الكفران بالله وبرسوله وبدينه.

وصلى خبيب ﷺ ركعتين في خشوع، وسلام، وإخبات.

تدفقت في روحه حلاوة الإيمان، فودَّ لو يظل يصلي، ويصلي، ويصلي.

ولكنه التفت صوب قاتليه وقال لهم: «**والله لولا تحسبوا أن بي جزعًا من الموت، لازددت صلاة**»!

ثم شهر ذراعه نحو السماء وقال: «**اللهم أحصهم عددًا، واقتلهم بددًا**».

ثم تصفح وجوههم في عزم وراح ينشد:

مَـا أُبَـالِي حِـينَ أُقْتَـلُ مُسْـلِمًا عَـلَى أَيِّ شِـقٍّ كَـانَ لله مَصْـرَعِي
وَذَلِـكَ فِي ذَاتِ الإِلَـهِ وَإِنْ يَشَـأْ يُبَـارِكْ عَـلَى أَوْصَـالِ شِـلْوٍ مُمَـزَّعِ

ولعله لأول مرة في تاريخ العرب يصلبون رجلًا ثم يقتلونه فوق الصليب.

ولقد أعدُّوا من جذوع النخل صليبًا كبيرًا أثبتوا فوقه خبيبًا ﷺ، وشدُّوا فوق أطرافه وثاقه، واحتشد المشركون في شماتة ظاهرة، ووقف الرماة يشحذون رماحهم.

وجرت هذه الوحشية كلها في بطء مقصود أمام البطل المصلوب!

لم يغمض عينيه، ولم تزايل السكينة العجيبة المضيئة وجهه.

وبدأت الرماح تنوشه، والسيوف تنهش لحمه.

وهنا اقترب منه أحد زعماء قريش وقال له: **أتحب أن محمدًا مكانك، وأنت سليم معافى في أهلك؟**

وهنا لا غير انتفض خبيب كالإعصار وصاح، في قاتليه: **والله ما أحبُّ أني في أهلي وولدي، معي عافية الدنيا ونعيمها، ويصاب رسول الله بشوكة.**

نفس الكلمات العظيمة التي قالها صاحبه زيد ﷺ وهم يهمُّون بقتله..! نفس الكلمات الباهرة الصادعة التي قالها زيد بالأمس، ويقولها خبيب اليوم، مما جعل أبا سفيان، وكان لم يسلم بعد، يضرب كفًّا بكف ويقول مشدوها: **والله ما رأيت أحدًا يحب أحدًا كما يحب أصحاب محمد محمدًا!**

كانت كلمات خبيب ﷺ هذه إيذانًا للرماح وللسيوف بأن تبلغ من جسد البطل غايتها، فتناوشته في جنون ووحشية.

وقريبًا من المشهد كانت تحوم طيور وصقور، كأنها تنتظر فراغ الجزارين وانصرافهم حتى تقترب هي فتنال من الجثمان وجبة شهيَّة.

ولكنها سرعان ما تنادت وتجمَّعت، وتدانت مناقيرها كأنها تتهامس وتتبادل الحديث والنجوى.

وفجأة طارت تشق الفضاء، وتمضي بعيدًا.. بعيدًا.

لكأنها شمَّت بحاستها وبغريزتها عبير رجل صالح أوَّاب يفوح من الجثمان المصلوب، فخجلت أن تقترب منه أو تناله بسوء!

مضت جماعة الطير إلى رحاب الفضاء متعففة منصفة.

وعادت جماعة المشركين إلى أوكارها الحاقدة في مكة باغية عادية.

وبقي الجثمان الشهيد تحرسه فرقة من القرشيين حملة الرماح والسيوف!

كان خبيب ﷺ عندما رفعوه إلى جذوع النخل التي صنعوا منها صليبًا، قد يمَّم وجهه شطر السماء وابتهل إلى ربه العظيم قائلًا: **اللهم إنا قد بلَّغنا رسالة رسولك فبلِّغه الغداة ما يصنع بنا.**

واستجاب الله دعاءه.

فبينما الرسول ﷺ في المدينة إذ غمره إحساس وثيق بأن أصحابه في محنة.

وتراءى له جثمان أحدهم معلقًا.

ومن فوره دعا المقداد بن عمرو، والزبير بن العوَّام، فركبا فرسيهما، ومضيا يقطعان الأرض وثبًا.

وجمعهما الله بالمكان المنشود، وأنزلا جثمان صاحبهما خبيب ﷺ، حيث كانت بقعة طاهرة من الأرض في انتظاره لتضمَّه تحت ثراها الرطيب.

ولا يعرف أحد حتى اليوم أين قبر خبيب ﷺ.

ولعل ذلك أحرى به وأجدر، حتى يظل مكانه في ذاكرة التاريخ، وفي ضمير الحياة، بطلًا، فوق الصليب!». [رجال حول الرسول ﷺ لخالد ٣٧٠-٣٧٧].

٣٢ ـ فضح المستشرقين:

وكذلك استشهد خبيب ﷺ كما استشهد زيد ﷺ في سبيل بارئه وسبيل دينه ونبيه.

وكذلك ارتفع إلى السماء هذان الروحان الطاهران، وكان في استطاعة صاحبهما أن يستنقذهما من القتل إن رضيا الردة عن دينهما، لكنهما في يقينهما بالله وبالروح وبيوم البعث، يوم تُجزى كل نفس بما كسبت ولا تزر وازرة وزر أخرى، رأيا الموت، وهو غاية كل حي، خير ما يكون غاية للحياة في سبيل العقيدة وفي سبيل الإيمان بالحق، ولكنهما آمنا بأن دمهما الزكي الطهور الذي أُريق على أرض مكة سيدعو إليها إخوانهم المسلمين يدخلونها فاتحين يحطمون أصنامها، ويطهرونها من رجس الوثنية والشرك، ويردون فيها إلى الكعبة بيت الله ما يجب لبيت الله من تقديس وتنزه عن أن يُذكر فيه اسم غير اسم الله.

لا يقف المستشرقون من هذا الحادث وقوفهم عند أسيري (بدر) اللذين قتلهما المسلمون، ولا يحاولون أن يستنكروا هذا الغدر برجلين بريئين لم يؤخذا في حرب وإنما أخذا خداعًا، وسارا بأمر الرسول ﷺ ليعلما من غدروا بهما ومن أسلموهما إلى قريش بعد أن قتلوا زملاءهم غيلة وبغيًا.

وهم لا يستنكرون ما صنعت قريش بالرجلين الأعزلين، مع أن ما صنعته بهما شر مثل للجبن وللعدوان الدنيء.

وكنا نحب من المستشرقين الذين أسرفوا في القول من أجل أسيري بدر اللذين قُتلا أن نسمع لهم كلمة في قتل الأسيرين المؤمنين على فرق ما بين الموقفين، وفي قتل من قُتل غدرًا وغيلة في سريتي الرجيع وبئر معونة، ولكن الأمر كما قيل:

وَعَيْبُ الرِّضَا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلَيْلَةٌ وَلَكِنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبْدِي الْمَسَاوِيَا

ولقد كانت أولى مبادئ الإنصاف تقتضي المستشرقين، الذين أنكروا ما فعل المسلمون بأسيري بدر، أن يكونوا أشد استنكارًا لغدر قريش وغدر الذين أسلموا إليها الرجلين لقتلهما، بعد أن قتلوا الأربعة الرجال الذين جاؤوا وإياهم إجابة لطلبهم ليدلوهم على الحق ويفقهوهم في الدين.

[حياة محمد ﷺ لهيكل ٣١٧، السيرة النبوية لأبي شهبة ٢/ ٢٤١-٢٤٢].

٣٣ ـ سمو التربية المنهجية تظهر في مواقف الأبطال:

يقول الشيخ عرجون: «ومن يتأمل موقف أبطال سرية (الرجيع) وما أبدوا من صبر صبور وشجاعة خارقة، وجلد على عظائم الأمور، ومقابلة لشدائد المحن بالرضا والتسليم، وتطلب للموت في ميادين العزة والكرامة، والترفع عن دنيات الحياة تطلبًا للحياة من سمو وتقدم للتضحية بأرواحهم، وهي أعز وأغلى ما يملكون، وإقدام على الاستشهاد برؤوس مرفوعة لا تطأطئ لغير عزة الله وجبروته ـ يتجلى له موقف الانحطاط الذي تمثل في الغدر والخيانة التي تسربلها الهذليون واللحيانيون، كما يتجلى له سمو التربية التي ربى عليها النبي ﷺ مجتمعه المسلم تطبيقًا لمنهج رسالته الخالدة.

وقد كانت هذه التربية ممثلة بآثارها العملية في مواقف أبطال سرية (الرجيع) الذي رسخ إيمانهم بالله تعالى، فكانوا في أشد مواقف الأزمات والتضحية أثب من الأطواد الشامخات، كما ظهر ذلك في مواقف عاصم بن ثابت ﷺ أمير السرية في رواية البخاري، ومَنْ قُتل معه من أقرانه في البطولة وثبات الإيمان.

وكما ظهر في مواقف خبيب وزيد بن الدَّثِنَةِ ﷺ، وهما يُرفعان على خشبة الصلب ليقتلا على أبشع صورة وهم يرون الموت يمشي إليهم في رماح ونبل الغادرين من خائني هذيل ولحيان، ثم في موقف خبيب ﷺ وهو محبوس في بيت ماوية مولاة حجير بن أبي إهاب وهي تحدِّث عنه بعد إسلامها فتقول: ما رأيت أسيرًا خيرًا من خبيب، طلب مني حين أجمعوا على قتله حديدة يتطهر بها استعدادًا للموت، فغفلتُ عن ابن لي صغير، فدرج الطفل إلى خبيب، والموسى في يده، فخشيت أن يقتله، ففزعت فزعة عرفها خبيب، فقال: **أَتَخْشَيْنَ أَنْ أَقْتُلَهُ؟! مَا كُنْتُ لأَفْعَلَ ذَاكِ إِنْ شَاءَ اللهُ**، وفي رواية: «**ما كُنْتُ لِأَغْدِرَ**»، وهي رواية تعبر عن سمو التربية في المنهج الإسلامي؛ لأنها تبين أن الغدر أقبح القبح، يستوي فيه الأعداء والأولياء؛ لأنه خصلة ذميمة منحطة لا تصدر إلا عن نفس جانبتها بدائه الفضائل الإنسانية.

ثم كما ظهر في موقف زيد بن الدَّثِنَةِ وخبيب ﷺ، وقد سألهما فُجَّار الشرك والوثنية ـ ساعة رفعهما إلى خشبة الصلب ليقتلوهما على هذه الصورة الشنيعة البشعة تشفِّيًا لأحقادهم فيهما وهما في قبضة أيديهم لا يخافون فرارهما من القتل: **ننشدكما الله أتحبان أن محمدًا في مكانكما نضرب عنقه وأنكما في أهلكما؟** فقال زيد بن الدَّثِنَةِ وخبيب ﷺ بلسان ينطق بقوة الحب الإيماني لرسول الله ﷺ تعبيرًا عما ملأ قلبيهما من إجلال لرسول الله ﷺ وحبه حبًّا فوق حبهما نفسيهما اللتين بين جنبيهما: ـ **والله ما نحب أن يفدينا محمد ﷺ بشوكة تؤذيه وهو في مكانه، وأنَّا بين أهلينا.**

فقال أبو سفيان بن حرب وكان قائد القوم وزعيمهم: **مَا رَأَيْتُ مِنْ النَّاسِ أَحَدًا يُحِبُّ أَحَدًا كَحُبِّ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ مُحَمَّدًا.**

أجل إنها مواقف لا تجود بمثلها الحياة، ولا يعرفها البشر في تاريخ المجتمع البشري كله؛ لأنها مواقف تسامى فيها الإيمان في سموه ورسوخه تساميًا أملاه المنهج التربوي الذي ربى عليه محمد ﷺ مجتمعه المسلم، وجُعل شريعة في هذا المنهج قوله ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده ونفسه التي بين جنبيه**»، فقال عمر بن الخطاب ﷺ وهو يسمع التعبير عن هذا المنهج: **لأنت يا رسول الله أحب إلي إلا من نفسي**، فقال رسول الله ﷺ: «**لا يا عمر، حتى أكون أحب إليك من نفسك**»، فقال عمر: **لأنت أحب إلي من نفسي**، فقال رسول الله ﷺ: «**الآن يا عمر**»، يعني إنك الآن كمل إيمانك إذ رقيت إلى ذروة الحب الإيماني.

إنها مواقف نور الإيمان وصفائه أمام ظلمات الكفر وكدورته وتسفله ووضاعته وأحقاده وضغائنه، ومواقف البطولة المسلمة أمام فجور الشرك والوثنية، ومواقف حب الموت شهادة في سبيل الله لإعلاء كلمته أمام مهانة الاستعباد الكفور للشهوات، ومواقف الهداية أمام حالك الظلمات.

[**محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٥١-٥٣**].

٣٤ ـ معاني الإيمان والتمسك بالعقيدة:

يقول أ/ الشامي: «إن هذه الحادثة بمقدار ما تحمل من معاني الغدر واللؤم، كما قال حسان ﷺ:

إِنْ سَرَّكَ الغَدْرُ صِرْفًا لَا مِزَاجَ لَهُ فَأْتِ الرَّجِيعَ فَسَلْ عَنْ دَارِ لِحْيَانَ (١)

بمقدار ما تحمل من معاني الإيمان والتمسك بالعقيدة، والموت في سبيلها، إضافة إلى الوفاء لتعاليم العقيدة، ونحاول بإيجاز أن نثبت بعض ذلك:

إن غزوة أُحُد لم تشف ما في صدور قريش من آثار بدر، بل إنها أضافت إليها جراحًا جديدة، وما نَذْرُ سلافة إلا التعبير عن ذلك.

---

(١) **لحيان** (بكسر اللام وقيل بفتحها): ابن هذيل بن مدركة بن إلياس بن مضر.

ولا شك أن الكثير من العرب كان يعلم ذلك، وهذا سبب من أسباب الغدر الذي حصل بغية الكسب المادي والتقرب من قريش.

كان بود هُذيل أن تقوم بما قامت به عضل والقارة، وهي التي حرضتها على ذلك، ولكن الذي منعها أن خديعة رسول الله ﷺ ليست بالأمر الهين، ولو ذهب وفد منها لتنبه ﷺ للغدر المبيت، ذلك أنها كانت على وشك أن تغزوه بقيادة خالد بن سفيان الذي قضى عليه ﷺ قبل أن يتم مشروعه؛ ولذا دفعت غيرها ثم ساعدت على ذلك كما رأينا.

ومن المضحكات ذلك التمسك بالقيم الذي التزمت به قريش، فهي لم تقتل زيدًا وخُبيبًا رضي الله عنهما في أرض الحرم، بل خرجت بهما إلى الحل، كما أنها انتظرت بهما حتى مضت الأشهر الحرم، أما الغدر الذي ارتكبته، وأما البعد عن المفاهيم التي كان يهتم بها كل ذي رجولة، فكل هذا وُضع جانبًا، ففي غزوة الخندق رأينا عمرو بن وُدٍّ نزل عن فرسه ليبارز عليًّا رضي الله عنه، ولم ير من الرجولة أن يقاتله وهو عليها بينما كان علي رضي الله عنه راجلًا على قدميه، أما قريش فقد قَبِلَتْ على نفسها أن تقتل هذين الرجلين وهما خلو من كل شيء إلا إيمانهما.

إن زيدًا وخُبيبًا رضي الله عنهما وقد استأسرا، لم يكونا يظنان تلك العاقبة، ذلك أنه كان لقريش أسرى عند رسول الله ﷺ أكثر من مرة، وأذن لهم ﷺ أن يفتدوا أسراهم، وكان أكبر الظن عند الشهيدين أن قريشًا ستغالي في طلب الفداء، ولا شك بأن المسلمين سيرخصون ما غلا في فدائهما، وهذا هو العرف القائم، ولكن قريشًا خرجت على الأعراف والقيم.

على أن موقفهما لا يقل عن موقف أصحابهما بطولة وشرفًا وقوة، ولقد كان لذلك الموقف أثره في نفوس من حضره، حتى أن طاغية القوم أبا سفيان ألقى بنفسه وبابنه معاوية إلى الأرض فَرَقًا من دعوة خبيب رضي الله عنه؛ لأنهم كانوا يقولون: إن الرجل إذا دُعي عليه فاضطجع لجنبه زالت عنه».

[من معين السيرة للشامي ٢٨١-٢٨٢].

٣٥ ـ لابد للدعوة من تضحيات:

يقول د/ الحميدي: «في هذه السرية بُذلت دماء زكية في سبيل الله ﷻ، وبعضها قُتل أصحابها صبرًا وعلى مشهد يضم جمعًا كبيرًا من الناس، وهذه الدماء الزكية تُعتبر من أهم الأسباب التي تُغَذِّي الدعوة الإسلامية وتدفع بها إلى الأمام؛ لأن الذين يحضرون هذه المشاهد أو تُروى لهم يعلمون أن وراءها هدفًا كبيرًا ساميًا هو نُصرة الإسلام، وبالتالي يعلمون بأن هذا الدين الذي يحمل أتباعه على بذل النفوس

طواعية وبشوق بالغ من أجله، والصبر الطويل الجميل على الأذى في سبيله، يعلمون أنه الدين الحق الذي يجب الإيمان به واتباعه.

ولا شك أن هذا الحادث الجلل قد ترك أثرًا واضحًا على مفكري قريش، حيث دفعهم إلى الميل نحو الإسلام والتعاطف مع المسلمين، إضافة إلى الأحداث الأخرى المشابهة مما عجل دخولهم في الإسلام سريعًا بعد فتح مكة المكرمة». [التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ٤٢].

٣٦ ـ الأخذ بالعزيمة:

يقول د/ أبو شهبة: «وإن لنا لوقفة ترينا كيف يستهين الإيمان بالكثرة حينما قاتل بضعة نفر غرباء عن ديارهم مائتي رجل في عقر دارهم، وكيف يسمو الإيمان عن الضعف والاستخذاء والترخص ويأبى إلا العزيمة، فقد كان يمكن لزيد وخبيب رضي الله عنهما أن يُظهرا كلمة الكفر، أو أن ينالا من النبي ﷺ وقلبهما مطمئن بالإيمان؛ ليكون سببًا في نجاتهما من القتل والصلب، ولكن أولي العزائم الثابتة، والعقائد الصادقة، يأبون إلا أن يموتوا أبطالًا كما عاشوا أبطالًا». [السيرة النبوية لأبي شهبة ٢/ ٢٤١].

٣٧ ـ القيم الروحية والتغيير:

ويقول أ/ فتح الباب: «ويمثل هذا الموقف من خبيب وزيد رضي الله عنهما حين أرادوا قتلهما أسمى القيم الروحية التي بثها الإسلام في قلوب أبنائه، فجعلهم روادًا للبشرية كلها ومصابيح الهداية في تاريخها، كما يمثل التغيير الجذري الذي أحدثه في نفوسهم ومجتمعهم، فنقلهم من ظلمات الغواية والضلال إلى أنوار اليقين، ومن العبودية إلى التحرر، ومن الحرص على المال والجاه والمتعة إلى التضحية في سبيل المبدأ.

ويتبدى ذلك التغير بينًا إذا عقدنا مقارنة بين موقف المشركين في هذا الحادث وموقف المسلمين، فالأولون يمثلون الغدر والخسة والعدوان، على حين يمثل المؤمنون الإيمان القوي والشجاعة الخارقة.

فالموت لديهم حفاظًا على الشرف والكرامة ودفاعًا عن العقيدة أحب من الحياة على ضيم وخسف، ولقد سقط بعضهم قتيلًا في معركة الصراع بين الحق والباطل تطهيرًا للأرض من رجس الأشرار وتحريرًا للإنسان من استغلال الإنسان، ولولا تلك الدماء الزكية التي روت الجزيرة العربية لما ازدهرت شجرة الحق والحرية والمعرفة بها، ثم ترعرعت حتى أخرجت واحدة من أعظم الحضارات في تاريخ الإنسانية».
[القيم الخلقية والإنسانية في الغزوات لفتح الباب ١٠٢-١٠٣].

٣٨ ـ الإسلام ينتزع الغدر والأحقاد، ويحل محلها الوفاء والمسالمة:

يقول د/ البوطي: «وفي مقابل غدر الوثنية، وخيانتها بالدعاة المسلمين، نقف على الصورة الرائعة لعكس هذه الطبيعة تمامًا لدى أولئك الدعاة الذين راحوا ضحية تلك الخيانة.

فقد رأينا كيف حُبس خبيب ﷺ أسيرًا في بيت بني الحارث في انتظار ساعة قتله، وكان قد استعار شفرة ليصلح بها شأنه ويتطهر استعدادًا للموت، وفي البيت طفل صغير راح يدرج نحوه في غفلة من أمه، ولقد كانت هذه اللحظة في حساب من يتعلق بالحياة ويفكر في الانتقام فرصة رائعة لمساومة أو غدر في مقابل غدر، ولقد كان هذا هو حساب أهل البيت كلهم، فما أن انتبهت أم الطفل إلى انصرافه نحو خبيب ﷺ حتى هبت مذعورة لتخلصه من براثن موت مؤكد!

ولكنها وقفت مندهشة عندما رأت طفلها وقد أجلسه خبيب ﷺ في حجره يلاطفه كأنه أب شفوق! ونظر إليها وقد ألمَّ بما في نفسها من الخوف، وقال لها في هدوء المؤمن الحليم: **أَتَخْشَيْنَ أَنْ أَقْتُلَهُ؟! مَا كُنْتُ لأَفْعَلَ ذَاكَ إِنْ شَاءَ اللهُ.**

فانظر إلى معجزة التربية الإسلامية للإنسان! خبيب هذا، وأولئك المشركون الحاقدون الذين راحوا يصنعون له الموت ظلمًا وعدوانًا، أنبتتهم أرض واحدة وأظلتهم تقاليد وطبائع واحدة، لكن خبيبًا اعتنق الإسلام فصاغه، وآمن بمحمد ﷺ فرباه، فخرج إنسانًا آخر، وأولئك عكفوا على ضلالتهم، فحبستهم ضلالتهم في طبائعهم المتوحشة الغادرة، فما أعظم ما يفعله الإسلام في الطبيعة الإنسانية من تغيير وتحويل». [فقه السيرة للبوطي ٢٠٠، وفقه السرايا للعيساوي ١٢٠].

ويقول د/ فيض الله: «موقف رائع مثالي حقًّا، الأسير ينتظر الموت الذي حُددت له ساعته، فلم يبال كثيرًا بفراق الدنيا، وأقبل في نفسٍ تفيض بالإيمان والبِشْر على مصيره المحتوم؛ أخذ الموسي ليصلح بها بعض شأنه، وليقبل على ربه في سَمْت جميل، ومظهر حسن، فلما دلف إليه الصغير، ابن عدوه الذي سيقتله ثأرًا لأبيه عمَّا قليل، أخذ يداعبه، ويربت عليه، ويتَلَطَّف به، وكان في الإمكان أن يغدر به، وبيده الموسي، أو أن يساوم في قتله، وينتزع العفو من أهله انتزاعًا، إنقاذًا لنفسه؛ ولهذا فزعت أم الوليد من غدر الأسير.

لكن الأسير المسلم، الـمُنَشَّأ في مدرسة النبوة، أشار في كلامه، إلى أن هذا ما يفعله في هذا المقام المادِّيون الهابطون، الذين ما تَمَرَّسُوا بأحكام الدين، ولا تأدَّبوا بآدابه، ولا ارتفعوا إلى قمته؛ أما هو، ذلك الأسير المسلم، الذي سيكرمه الله بالشهادة في سبيله، فليس من شأنه أن يغدر بطفل بريء وادع، ولا أن يمسه بأي سوء؛ لأنه يفهم جيدًا ذلك المبدأ الإسلامي العظيم، الذي يقرره قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء: ١٥].

انظر كيف أشار إلى ذلك بقوله: «**مَا كُنْتُ لأَفْعَلَ ذَاكَ إِنْ شَاءَ اللهُ**»، ويشير هذا الأسلوب في البيان العربي إلى أن هذا الفعل غير وارد ولا مُتَصَوَّر ولا هو في الحسبان، في هذا الظرف الحاسم، الذي قد يتعلق

فيه الاستثناء، لموقع الضرورة، وإنقاذ المهج، لكن المبدأ الأصلي، الوفاء، والكف عن البُرَءَاءَ، لا تنهض له هذه الاعتبارات الموهومة.

وقارن بين التزام خبيب ﷺ بمبادئ الإسلام في أحلك الظروف، وبين غدر حلفاء هذيل وموالي عامر بن الطفيل، الذين خضعوا للشرك وضلالات الوثنية، فاستباحوا لأنفسهم الغدر بالأبرياء، وقَتْل الوادعين من الدعاة الأمناء، وكلهم عرب نبتوا في الجزيرة؛ ثم احكم وأنت منصف في حكمك بأنه لا شيء مثل الإسلام، يستل الأحقاد، ويزرع السلم والوفاء في موضعها». [صور وعبر لفيض الله ١٥٣-١٥٤].

ولو أن خبيبًا ﷺ المأسور لِيُقتل بعد أن غدروا به قَتَلَ الغلام ثأرًا من أهله لما كان أمرًا مستنكرًا، فهو مظلوم انتصر لنفسه، ولكنه الخلق الإسلامي الأصيل، والقلب المؤمن، والضمير الحي تترفع بصاحبها عن الغدر والغيلة حتى ولو كان على سبيل المجازاة، وأن يؤخذ الغلام بجريرة أهله، وإن هذه المعاني الشريفة لتستشفها في قولة خبيب ﷺ للجارية: **أَتَخْشَيْنَ أَنْ أَقْتُلَهُ؟! مَا كُنْتُ لأَفْعَلَ ذَاكِ إِنْ شَاءَ اللهُ.**
[السيرة النبوية لأبي شهبة ٢/ ٢٤١].

٣٩ ـ تحري الحلال من المطعم والمشرب:

يقول د/ الغضبان: «لقد طغت أخبار خبيب وزيد على أخبار عاصم وصحبه، فهما رسولان حيان داخل مكة، وهما يمثلان رسول الله ﷺ، وهذه أول مواجهة حية بين أسيرين من المدينة وبين قيادات قريش.

لقد أرسل رسول الله ﷺ هذه السرية من القيادات العالية عنده، وهو مطمئن كل الاطمئنان إليها، وعلى قدرتها على تمثيله، وتمثيل هذه الدعوة، وقدرتها على مواجهة الأحداث الكبار بالحكمة البالغة، ولئن اختلف الموقفان ابتداء، بين من استجاب للعهد ونزل عليه، وبين من رفضه، ولكن كلا الفريقين مثَّل الصورة العالية المشرِّفة لهذا الدين، ولم تكن الدعوة من خلال الكلام كما كان مقررًا لهم، بل كانت الدعوة من خلال السلوك والممارسة، فخبيب وزيد ـ رضوان الله عليهما ـ رغم أن كل واحد منهما قد أُسر في مكان منعزلًا عن الآخر، لكنهما برزا نموذجين خالدين كأنما يصدران عن مشكاة واحدة.

زيد ﷺ يرفض أن يأكل مما يذبح على النُّصب «**ولا يأكل شيئًا مما أُتي به من الذبائح...**»، ويجد صفوان بن أمية حرجًا في ضيفه الأسير «فشق ذلك على صفوان وكانوا قد أحسنوا إساره، فأرسل إليه صفوان: فما الذي تأكل من الطعام؟ قال: **لست آكل مما ذُبح لغير الله، ولكني أشرب اللبن**»، لقد كان خارجًا عن سلطان بطنه، وكانت التربية النبوية قد صاغته تلك الصياغة العالية، فهو يمثل شريعة الله في هذه الأرض، ومن شريعة الله ألا يأكل مما لم يُذكر اسم الله، أو ذُكر عليه غير اسم الله، وإذا خبيب ﷺ

يقف الموقف نفسه، ويتعرض للمحنة نفسها، فيرتفع نفس الارتفاع، ويسمو السمو نفسه، وذلك حين تأثرت النساء به فقلن له: يا خبيب، هل لك من حاجة؟ قال: **لا، إلا أن تسقيني العَذْب، ولا تطعميني ما ذُبح على النصب، وتخبريني إذا أرادوا قتلي**». [التربية القيادية للغضبان ٣/ ٢٥٧-٢٥٨].

٤٠ ـ الدعوة إلى الله داخل المحنة:

يقول د/ الغضبان: «وهما يقفان الموقف نفسه بصفتهما دعاة إلى الله ﷻ وسط هذا الوحل من الشرك، فهم في الليل صافين أقدامهم بين يدي ربهم ﷻ، يناجونه ويتضرعون إليه، ويصومون نهارهم قربى إلى الله، إنهما نموذجان حيان للإنسان المسلم الداعية «**وكان خبيب يتهجد بالقرآن، وكان يسمعه النساء فيبكين ويرفقن عليه...**»، «**وكان زيد بن الدَّثِنَةِ عند آل صفوان بن أمية محبوسًا في حديد، وكان يتهجد بالليل ويصوم بالنهار**».

لقد كان زيد وخبيب رضي الله عنهما هما حديث قريش، وحديث نسائها وأطفالها، فهما طراز لا مثيل عندهم، وقد فرضا احترامهما رغم العداوة والحقد، وكانت فرصة طيبة، ومناسبة ثمينة ليحقق الأسيران هدفهما في الدعوة إلى الله، وذلك بانتظار انصرام الأشهر الحرم، ليُقتلا خارج الأشهر، وخارج الحرم، وأن تدع مسلمًا داعية قائدًا وسط بيت من الشرك ـ حتى ولو كان أسيرًا ـ مثل هذا الأمر: كفيل أن يغزو قلوب هذا البيت، ويكون الحديث عنه ملء أفئدة رجاله ونسائه وأطفاله «**وكان يسمعه النساء فيبكين ويرفقن عليه..**».

ويلتقي الأخوان الحبيبان يوم خروجهما للقتل، مثل يتيمين في المدينة فتتعانق أرواحهما قبل تعانق أجسادهما، وإذا هما روح واحدة، يوصي كل واحد منهما أخاه بالصبر والثبات على الدين أمام جموع مكة الحاشدة، والتي خرجت لتحقق ثأرها من محمد ﷺ.

وخرج معه النساء والصبيان والعبيد وجماعة من أهل مكة، فلم يتخلف أحد، إما موتور فهو يريد أن يتشافى بالنظر من وتره، وإما غير موتور فهو مخالف للإسلام وأهله.

وأمام هذه الحشود الجامعة تتجسد بين يدينا من جديد قصة أصحاب الأخدود في حزب محمد ﷺ، وإذا الغلام المؤمن يكبر ليكون الرجل المؤمن، وتأتي قصة كتابة تاريخ هذا الدين بالدم الزكي، والدعوة إلى الله بالشهادة في سبيله، وتأتي مغريات الدنيا، فإما الموت والصلب، وإما الحياة الرغيدة الهنيئة، لهذين البطلين القِرمين.

ويقف العظيمان الموقف نفسه وهما يُخرجان مخبوء قلبيهما ومكنون صدريهما نحو قائدهما الحبيب ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ علاقة الحب والتفاني في الحب.

وأنطق الحق أبا سفيان بن حرب ـ قائد الشرك آنذاك ـ كلمة مضت مثلًا في التاريخ وهزت كيان مكة كله، وغزت قلوب المحتشدين شيبهم وشبابهم ونسائهم.

لقد سطَّر هذان العظيمان بدمهما أنصع صفحات التاريخ الإسلامي، وأعظم دعوة إلى الله ﷺ لهذا الدين، فهذا الطراز الرفيع من الرجال هو الذي تحاربه قريش، فكيف ينتصرون عليه؟

ولئن مضى زيد ﷺ صامتًا إلى ربه فقد مضى خبيب ﷺ وأضاف سُنَّة لكل مسلم في الأرض، «**فلما انتهوا بخبيب إلى خشبته قال: هل أنتم تاركي فأصلي ركعتين؟ قالوا: نعم، فركع ركعتين أتمهما من غير أن يطول فيهما...**».

وشاءت إرادة الله ـ تعالى ـ أن تظهر كرامة خبيب ﷺ خاصة، كما حدثتنا ماوية التي غزا قلبها ﷺ.

وظهرت الكرامة الأكبر أمام الحشد كله: «فاضطرب على الخشبة فانقلب فصار وجهه إلى الكعبة، فقال: «**الحمد لله الذي جعل وجهي نحو قبلته التي رضي لنفسه ولنبيه وللمؤمنين**».

[التربية القيادية للغضبان ٣/ ٢٥٨-٢٦٠].

٤١ ـ هشاشة الباطل رغم انتفاضه:

يقول د/ الغضبان: «ورغم كل مظاهر الحقد والعداوة في قتل خبيب ﷺ، والذي يربون عليه أولادهم، فقد تزلزل الأخنس بن شريق أمام ذكر خبيب ﷺ لحبيبه المصطفى ﷺ وهو يُقتل، فقال: «**لو تَرَك ذكر محمد على حال لتركه على هذه الحال، ما رأينا قط والدًا يحد** (من الوجد وهو زيادة الحب) **بولده ما يحد أصحاب محمد بمحمد ﷺ**».

ورغم كل مظاهر الحقد هذه، فقد تكشف ضعف المجتمع الجاهلي كله، أمام دعوة خبيب ﷺ وهو على خشبته، تلك الدعوة التي صعقت قادة مكة، كما وصفها من حضر تلك الدعوة.

إنهم في حقيقة أمرهم يعرفون مقام خبيب ﷺ عند الله، ويعرفون أنه على الحق الأملق، ولا أدل على ذلك من خشيتهم من دعوته، وإن ثباته، وتحديه، وصلاته، وسلوكه، قد غزاهم في قلوبهم جميعًا، فكانت خيوط النور الأولى التي تسللت إلى قلوبهم من خلاله، وما منهم من أحد إلا أكرمه الله بالإسلام بعد ذلك.

أما المأفونون من المنافقين الذين يتحركون في الظلام فراحوا يتهامسون بينهم بالنقد والتشفي، ويتمسحون في الحرص على الإسلام وأهله، فنزل القرآن عليهم كالصواعق ليفضحهم، ويفضح ملمسهم الناعم النجس: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ

ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ [البقرة].

ومضت سرية الرجيع رمزًا من رموز هذه الأمة، وسجلًا من سجلات صمودهما، ومضى خبيب ﷺ خاصة علمًا على الصبر، والثبات والتضحية، حتى لينشد المسلمون فيه الأشعار وخاصة: ملك البيان في عهد النبوة حسان بن ثابت ﷺ». [التربية القيادية للغضبان ٣/ ٢٦١-٢٦٢].

٤٢ ـ غلظة طبع الجاهليين:

يقول أ/ فتح الباب: «وتدل هذه الواقعة على مدى ما بلغته قريش في جاهليتها من غِلظة الطبع وبشاعة الجرم، يستوي في ذلك رجالها ونساؤها.

فامرأة مثل هند أو سلافة لا تجد سبيلًا للتنفس عن حقدها الكظيم غير أحط وسائل الثأر وأبشعها، فإذا لوحظ أن الشهيدين حمزة وعاصمًا ﷺ قد قَتلا بعض المشركين في معركة جماعية متكافئة، تبين مدى مخالفة قريش حين مثلت بجثث أعدائها المحاربين لأبسط مبادئ الحرب كما عرفها الإنسان من قديم، دلالة على فساد المجتمع الجاهلي وحتمية العمل على تغييره للخلاص من شروره وآثامه، وإنشاء مجتمع جديد يقوم على القيم الروحية والمبادئ الإنسانية السامية». [القيم الخلقية لفتح الباب ١٠٠].

٤٣ ـ حقد الكفر على أهل التوحيد:

يقول م/ أبو راس: «لقد ظهر جليًّا في هذه السرية حقدُ الكفر ـ على اختلاف مشاربه ـ على أهل التوحيد أيًّا كانوا دون النظر إلى روابط اللغة والتاريخ والنسب!

إذ إن الأمر الأساسي والأولي الذي يحرك الإنسان أيًّا كان هذا الإنسان إنما هو عقيدته التي يؤمن بها والتي يتحرك في سبيلها.

وهذا هو الأمر الذي حاول شياطين الإنس والجن أن يزحزحوا المسلمين عنه إذ لم تعد العقيدة الإسلامية هي التي تحرك المسلمين أو ترسم لهم مبادئهم وأهدافهم ومنطلقاتهم لهذه الأهداف، وذلك بعد أن استورد عصبة من بني جلدتنا ـ الذين تربوا على أيدي الشرق والغرب ـ مبادئ منحرفة لا هدف لها إلا تفتيت المسلمين ليلتفوا حول عصبيات مهزوزة هزيلة، فأصبحت القوميات والوطنيات هي المسيطرة عليهم، المحركة لهم.. الأمر الذي أدى إلى ضياعهم وذهاب ريحهم».

[تأملات حركية في سيرة المصطفى ﷺ لأبي راس ٢١٧-٢١٨].

٤٤ ـ تمحيص المؤمنين:

يقول د/ البوطي: «قد يتساءل البعض: فما الحكمة في تمكين يد الغدر من هؤلاء الفتية المؤمنين الذين لم يخرجوا إلا استجابة لأمر الله ورسوله؟ وهلَّا مكنهم الله من أعدائهم ليتغلبوا عليهم؟

والجواب هو كما ذكرناه أكثر من مرة من أن الله تعالى تَعَبَّد عباده بتحقيق أمرين اثنين: إقامة المجتمع المسلم، والسعي إلى ذلك في طريق شائكة غير معبدة، والحكمة من ذلك أن تتحقق عبودية الإنسان لله تعالى، وأن يُمَحَّصَ الصادقون عن المنافقين، وأن يتخذ الله منهم شهداء، وأن يتجلى المعنى التنفيذي للمبايعة التي جرت بين الله وعباده المؤمنين والتي صرح بها قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾[التوبة].

وأي معنى كان يبقى للتوقيع على صك هذه المعاهدة، لو أن كل ما جاء في مضمونها وَهْمٌ لا يتحقق؟! بل وأي قيمة تبقى حينئذ لهذا التوقيع حتى يحرز به صاحبه الجنة والسعادة الأبدية الخالدة.

والمشكلة في أساسها إنما تطوف في رأس من قَدَّر هذه الحياة العاجلة أكثر من قدرها الحقيقي وأولاها أكثر مما تستحق من الاهتمام، وضعف تعلقه في المقابل بالحياة الآخرة وشأنها، وتلك هي آية عدم الإيمان بالله تعالى أو ضعفه في النفس، ومثل هؤلاء الناس لا يُنتظر منهم أن يغامروا بروح ولا مال، أما المؤمنون حقًّا فالمشكلة غير متصورَّة لديهم من أساسها، فلذة الحياة الدنيا في يقينهم، أقل شأنًا من أن تحبس المسلم عن أداء أصغر طاعة يتقرب بها إلى خالقه، وما التضحية بالروح في يقينهم إلا الانطلاقة من سجن الدنيا إلى نعيم الآخرة، وأَنْعِم بها من غاية هي كل أمل المسلم في حياته التي يعيشها، وهذا الشعور يتجلى بأوضح صورة في الأبيات التي قالها خبيب ﷺ عند مقتله، خاصة في آخر بيت منها وهو يقول:

فَلَسْتُ بِمُبْدٍ لِلعَدُوِّ تَخَشُّعًا وَلَا جَزَعًا إِنِّي إِلَى الله مَرْجِعِي (١)

[فقه السيرة للبوطي ٢٠١-٢٠٢].

٤٥ ـ دلالات يوم الرجيع:

يقول الشيخ أبو زهرة: «إن يوم الرجيع يدل على أمور ثلاثة:

أولها: ما كان من تحريض قريش من غدر وخيانة واستخدام أخس أنواع الخيانة.

وثانيها: أن قريشًا لم يشتفوا لثاراتهم من بدر، وأنهم أنهوا الحرب في أُحد غير مختارين، وإلا لبقوا حتى يأخذوا بكل ثاراتهم، وأنه قد جدت لهم في أُحد ثارات أخرى.

وثالثها: أن العرب بسبب الدعاية التي قامت بها قريش من إشاعة أن جموع محمد ﷺ قد هُزمت، قد وجد فيهم من يعمل لحسابها، ويرجو رضاها، ولم يكن شيء من ذلك بين بدر وأُحد، ولكنه كان بعد أُحد لإشاعة الهزيمة الكاذبة والله أعلم». [خاتم النبيين ﷺ لأبي زهرة ٢/ ٧٤٢].

---

(١) **التخشع**: التذلل.

٤٦ ـ فوائد ذكرها الإمام ابن حجر:

قال ابن حجر:

(١) وَفِي الحَدِيثِ أَنَّ لِلأَسِيرِ أَنْ يَمْتَنِعَ مِنْ قَبُولِ الأَمَانِ وَلَا يُمَكِّنَ مِنْ نَفْسِهِ وَلَوْ قُتِلَ، أَنَفَةً مِنْ أَنَّـهُ يَجْرِي عَلَيْهِ حُكْمُ كَافِرٍ، وَهَذَا إِذَا أَرَادَ الأَخْذَ بِالشِّدَّةِ، فَإِنْ أَرَادَ الأَخْذَ بِالرُّخْصَةِ لَهُ أَنْ يَسْتَأْمِنَ.

قَالَ الحَسَنُ البَصْرِيُّ: لَا بَأْسَ بِذَلِكَ. وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ: أَكْرَهُ ذَلِكَ.

(٢) وَفِيهِ الوَفَاءُ لِلمُشْرِكِينَ بِالعَهْدِ، وَالتَّوَرُّعُ عَنْ قَتْلِ أَوْلَادِهِمْ، وَالتَّلَطُّفُ بِمَنْ أُرِيدَ قَتْلُهُ، وَإِثْبَاتُ كَرَامَةِ الأَوْلِيَاءِ، وَالدُّعَاءُ عَلَى المُشْرِكِينَ بِالتَّعْمِيمِ، وَالصَّلَاةُ عِنْدَ القَتْلِ.

(٣) وَفِيهِ إِنْشَاءُ الشِّعْرِ وَإِنْشَادُهُ عِنْدَ القَتْلِ، وَدَلَالَةٌ عَلَى قُوَّةِ يَقِينِ خُبَيْبٍ ﷺ وَشِدَّتِهِ فِي دِينِهِ.

(٤) وَفِيهِ أَنَّ اللهَ يَبْتَلِي عَبْدَهُ المُسْلِمَ بِمَا شَاءَ كَمَا سَبَقَ فِي عِلمِهِ لِيُثِيبَهُ، وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ.

(٥) وَفِيهِ اِسْتِجَابَةُ دُعَاءِ المُسْلِمِ وَإِكْرَامُهُ حَيًّا وَمَيِّتًا، وَإِنَّمَا اِسْتَجَابَ اللهُ لَهُ فِي حِمَايَةِ لَحْمِهِ مِنْ المُشْرِكِينَ، وَلَمْ يَمْنَعْهُمْ مِنْ قَتْلِهِ؛ لِمَا أَرَادَ مِنْ إِكْرَامِهِ بِالشَّهَادَةِ، وَمِنْ كَرَامَتِهِ حِمَايَتُهُ مِنْ هَتْكِ حُرْمَتِهِ بِقَطْعِ لَحْمِهِ.

(٦) وَفِيهِ مَا كَانَ عَلَيْهِ مُشْرِكُو قُرَيْش مِنْ تَعْظِيمِ الحَرَمِ وَالأَشْهُرِ الحُرُمِ. [فتح الباري ٧/ ٤٤٤-٤٤٥].